رواية غرامية مصرية

نعيمة

تأليف عبد الرحمن الغمراوى

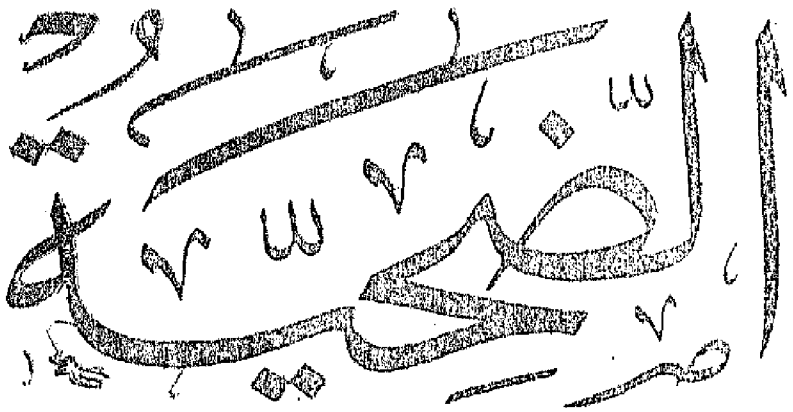

تأليف

شيخ الحمد الفرا وي

ضابط بالجمارك

معرب

(مشرع فيصر) و (صوت الحزم)

« حقوق الطبع محفوظة »

الاهداء

انى لأبذل آخر قطرة من دمائى في سبيل بلادى فحقيق بى أن أهديها نفثات يراعى. فالى الوطن المفدى. الى مصر الناهضة. الى كل مخلص عامل فى سبيل حريتها وإعلاء شأنها أهدى كتابى وليحيى الوطن

الغمراوى

٢ رجب ١٣٣٩

١٢ مارس ١٩٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الاول

السماء صافية الاديم . والشمس تسبح فى برجها فرحة مبتهجة . لا ينغصها هذا الهناء من اصلاء الوجودات ناراً حامية و النسيم العليل يلطف من حرارتها . وسناها يملأ الكون نوراً متراميا فوق الخضرة المنعشة . والحقول المكسوة بشجيرات القطن الضئيلة التى لم يتم نموها وسط الجو الساكن الهادئ

فى هذا اليوم . وهو اليوم الرابع عشر من شهر برموده القبطى بقرية . . . الواقعة على الجانب الغربى من بحر شبين أكثر قرى المنوفية سكوناً . وأطيب أرض وادى النيل تربة . كان شمخ وقور يجلس فى قاعة استقباله (مضيفة) يتجاذب الحديث مع رفيق له أصغر منه ببضعة أعوام . وعلى

مقربة منهما بجوار الباب يجلس فتى فى عنفوان شبابه ممتلا الجسم مفتول الذراعين تنفرج شفتاه عن ابتسامة لذيذة بين كل آونة وأخرى . ملابسه ريفية لا تكلف فيها . وهو رغم هذه الملابس يظهر لاول وهلة أنه حضرى صميم . تدل على ذلك بشرته البيضاء وأطرافه الناعمة وسطوع جبهته ذكاءً ورقة

وكانت امامهما القهوة يتناولونها وهم سكوت لا يسمع وسط السكون المخيم حولهم غير خفقان فؤاد الساعة المعلقة غير أنه يظهر أنهم قبل هذا الصمت كانوا يتحدثون حديثاً مفرحاً لذيذاً مما جعل الابتسامة تظهر وتختفى فوق ثغر الفتى الجميل

وبعد ان فرغوا من تناول القهوة نادى الفتى خادماً أخذ فارغ الاوانى ولم يلبث ان بدأ الشيخ الحديث قائلا :

ما قولك يا حاج مصطفى فى هذا السفر الذي أشار على الطبيب ؟

قال : طبعاً هو أدرى بأنك تحصل على فائدة من وراء ذلك

قال : وهل تظنني أشفى من مرضى بحلوان ؟

قال : لقد كنا نعرف من قديم أن من كان فى مرضك يشير عليه الطبيب بالانتقال اليها . فحلوان هى أوفق البلاد لعلتك . ومياهها المعدنية فيها شفاء لك على ما أعتقد . ولم يطلب اليك الدكتور خيرى السفر اليها الا لانه يدرى بان تلك المياه تفيدك

قال : لتكن ارادة الله . وسأترك لرضوان ادارة العربة اما أنت وهند فتسافران معى

فتكلم الفتى الآن وهو من دعاه رضوان قائلا : وهل ترى يا خالاه أن فى استطاعتى القيام بهذه المهمة الصعبة ؟

قال : بلى يا ولدي انى أثق بك ثقة كبرى وأعرف انك كفء لمثل هذه المهمة .

قال : ولكن بعدكم عنى يجعلنى مشتت الافكار ملولا لا يلبث الضجر أن يجد سبيلا الى عزيمتى . فهلا أرحتنى من هذا العبء الثقيل :

قال : ومن تظن يا ولدى يقوم بما ترغب عنه أنت ؟

قال دع أخى حسن يقوم بذلك

فصاح : حسن ! وتقول حسن ! . تالله يا رضوان لو لم أكن أعزك أكثر من ابنتى الوحيدة لما غفرت لك هذه الذلة التى أتيتها . أتظن أننى أثق بهذا الملعون المتهتك سامحنى يا ولدى لأننى ألعن أخاك ولكنى لا أستطيع أن أسمع اسمه دون أن ألعنه . رحمة الله على أبيك . لقد ألهمه الله إلهاماً صالحاً فوقف معظم ممتلكاته فأصبح السد منيعاً بينها وبين يد أخيك المسرفة . ولكنى آسف للجزء الصغير الذى لم يوقف اذ أصبحت يد الخراب ناشبة فيه مخالبها ولا تلبث عما قريب أن تأتى نهايته مع ما ورثه عن أمه

قال رضوان : كفى يا خالاه تفكرنى بذلك كله فان أخى قد نغص علىّ عيشى باسرافه المتناهى . وليت شعرى من أرضعه هذه الخلة السوداء وهو الشاب الرقيق المتعلم تعليما راقياً !

قال : أهو متعلم كما تقول ؟ لبئس هذا العلم الذى تعلمه لأنت فى نظرى ونظر كل من عرفك ودرس أخلاقك

مع عالمات المتوسط أحب الىّ من ذلك المتغطرس المتنقل كالنحلة الى أماكن الملاذ ومواخير الفساد . ما الذي جناه من سفره الى أوروبا والدخول فى أكبر جامعة بباريس ؟ ألم يعد اليك بل بالاصح الينا وهو خاوى الوفاض يتأبط ذراع خليلته الفرنسية . . . ولقد كان يمكن أن أسامح له هذه الهفوة الشنيعة لو كنت رأيته يتأبط تحت ذراعه الآخر محفظته التى بها شهاداته العلمية التى حصل عليها بعد مرور ستة أعوام فى فرنسا صرفنا عليه فيها ما يكفى لبناء ملجأ

ألم يستمر معاشراً تلك المرأة الغريبة عنه حتى ملّت صحبته بعد ان كانت تقسم انها لم تحب غيره ولن تحب . وما لبث أن رآها تفر من حظيرته لتعاشر رجلا آخر من أبناء جنسها ؟ .

ذلك هو الدرس الاول الذى تعلمه أخوك ولكنه لا يلبث أن يلدغ من نفس الجحر مرة ثانية

قال رضوان : لنترك أخى بالله ياخالاه وقل لى كم سيطول سفركم

قال : لا أقل من شهرين

قال : شجعني الله على فراقكم هذه المدة الطويلة (ومضى)

كان العصر قد قرب ميعاده لما ترك رضوان قاعة الاستقبال والشمس لا تزال أشعتها محرقة يلتهب قرصها التهاباً فأخذ يسير على مهل في طريق (الساقية) يحييه نسيم عليل وقد أخذ لفرط ذهوله وانشغال فكره يسير على غير هدى فى طريقه الى الناعورة حتى وصلها . فوجد الثور سائراً والغلام المكلف به نائماً على الترس الاكبر (كبير الساقية) نوم الابرار وهو يبتسم فى نومه . فأشفق أن قظه فيقوم مذعوراً خائفاً . فتركه وانتحى جانباً وخلع حذاءه الريفى وغمس رجليه حتى نصف الساق فى الماء الصافى وجلس هكذا مفكراً والشمس على ما هى عليه تلقى باشعتها وهى فى أبان شدتها . والجو رائق والسماء مصحية صافية والنسيم العليل يلطف من شدة وطأة حرارة القرص وخرير الماء فوق الحصى يحدث صوتاً هادئاً لذيذاً

وما لبث أن تنهد عميقاً وهو يعبث بيده فى الماء وتدحرجت على خده دمعة كبيرة هى أول دمعة أفرجت عنها مقلته منذ شب رجلا رشيداً !

فهب لمنظرها كالملدوغ وصاح قائلا : ويل أحببت أنا رحماك ربى انى أخشى أن أحب !

لقد كان رجلا فى كل دور من أدواره . . كان وهو فى سن الخامسة متفوقا على أترابه فى قوة البدن صلب الارادة وما دخل المدرسة وهو فى السابعة حتى ظهرت مواهبه . فنال شهادة الدراسة الابتدائية بعد أربع سنوات ونال الشهادة الثانوية وهو فى الخامسه عشرة ومن ثم لم يرغب فى تتميم دراسته وفضل العودة الى مزرعة أبيه ومعاشرة الفلاحين السذج على البقاء فى البندر فقبض على الفأس طائعاً مختاراً وترك القلم حيناً ليتفرغ لآلات أغلظ منه وأثمن . وقاد زمام الثيران فى حرثها وشمر عن ذراعيه وساقيه وخاض الماء عارى القدمين ليراقب الماء فى رى حيضان (الشراق) فبرع فى كل ذلك وأصبح من المعدودين

فكان رجلا . . رجلا بالمعنى الصحيح ، يتطرق الوهن الى
ولم يشعر بتعب قطوهو يجهد بدنه اجهاداً مستمراً ! . فمن
يستطيع أن يغير حال هذا البطل الفلاح المتعلم ، من يقدر
على اثارة عواطفه وقد عاش حتى هذه اللحظة (وقد بلغ
الخامسة والعشرين) دون أن يحدث له ما يكدر عيشه الناعم
الذى لا تضطرب فى سمائه غيمة ولا تمر بصفحته غبرة

لقد استطاع الحب ذلك . وهو الذى غير حال رضوان
فابكاه ولا عهد لغيره بالبكاء ! . لقد جذبت الطبيعة دم شبابه
وحركته فتأثرت عواطفه وخضع لقوانين البشر . وهل
هو ليس من البشر ! . ولكن متى وكيف عرف الغرام

لقد كان يظن نفسه أبعد خلق الله عن هذه العاطفة
اللذيذة وكان يقول فى نفسه دائماً « لم يحن هذا الوقت بعد
ومتى حان أعرف كيف انتقى من أريد وأحبها بكل ما فى
نفسى من قوة »

مات والد رضوان قبل والدته بعام واحد ومضى على
موت الاخيرة عامان كان فى خلالهما يعاشر خاله الحاج

مبروك الصاوى مع ابنته الوحيدة اليتيمة . أما أخوه حسن فكان قد نزح الى فرنسا وتركه وحيداً في بيت خاله فلم يجد والحالة هذه من يأنس اليه في ساعات فراغه غير تلك الابنة الوديعة التى كان يجد لذة العيش فى الجلوس اليها والتحدث معها تحت ظلال الاغصان الوارفة في حديقة (الدوار) الفناء

وكانت الفتاة على علم اذ قضت ستة أعوام تتلقى العلم في المدرسة ثم تمت دراستها على يد معلم مهذب خصصه والدها لتكميل تهذيبها . فنالت على يديه أدباً وعلماً جعلاها فى مصاف الشابات الراقيات وهى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها

فكانت أعز شيء لدى رضوان . يرضيها بكل ما فى وسعه . ويلبى أقل إشارة منها . وهو يعدها شقيقة له يجب عليه أن يرعاها كشقيق مخلص ولم يعلم ما كان يضمره لها في نفسه أكان وداً واخاء أم حباً وغراماً . . وعظم عليه أن يظن انه الأخير فلم يقل لها يوماً أنى أحبك يا (هند) وبقى

يحفظ لها المكان الاول فى فؤاده دون أن يصدق انه يهواها حتى اليوم فقط

أما الآن وقد صرح والدها بأنه سيسافر الى حلوان للعلاج ومعه (هند) فقد شعر بأن الدم يغلى فى فؤاده غليانا وشعر فى هذه اللحظة بأن ابنة خاله لا تشغل مكانا أرفع... وان العاطفة التى حسبها حب شقيق لشقيقته هى عاطفة ألذ وأطهر.. عاطفة أرفع حب.. الحب الأبدى الطاهر الذي لا تقوى كرور الأيام على انتزاعه من فؤاده.. ولذا فقد بكى.. أفرج عن دمعة فقط.. ولو انها دمعة واحدة الا انها أحر وأغزر ماء مما بكى غيره فى شهور

جمعت كل ما شعر به فؤاده من وحشة مقبلة تدوم شهرين. شهرين!. يا لله. وهل يستطيع أن يبقى بعيداً عن هند شهرين تماماً؟. أهل يقدر هذا الفلاح البطل على مباشرة المهمة التى القاها خاله على عاتقه دون أن يجد الملل وانوهن الى قلبه سبيلا؟. انه من الآن يشعر بألم الوحشة والفراق وهذه أول مرة عرف فيها معنى الضجر.. ذلك

لانه عاشق ولكنه حتى الآن يغالط نفسه ويدعى انه لم يحب

لقد أحب وقضى الامر . . ولا تلبث يد الغرام أن تمتد الى دموعه فتفيض سجالا على الخدين . . لقد ذعر لما رأى دمعة واحدة تتدحرج فوق خده : فكيف به متى رقت شكواه فأصبحت الفاظه كأنها عبرات ؟

ظل رضوان تائهاً فى هذه البيداء الواسعة كأنه يستقل قارباً صغيراً تتقاذفه أمواج البحر المتلاطم فلا يستقر على حال ولا يعرف له شاطئاً يرسى عليه حتى مضى الوقت وهو لاه عما حوله

وكان يمكن أن يظل هكذا لو لم يطرق صماخ أذنه صوت غلام الناعورة وهو يقول (عا . عا) فقام من فوره ولبس حذاءه وقد أوشكت ذكاء أن تختفى وراء الافق . وسمع حال سيره فى طريق آخر دون أن يعرج على الساقية صوت صغار الرعاة ينادون بعضاً . وخوار عجولهم يملأ الفضاء وغناء البنات الفلاحات يرن رنيناً شجياً على مقربة منه آتياً من الناحية البحرية

فاطربه أن يمر به كل هؤلاء وهو واقف فى مكانه فانحى جانباً من الطريق الذى يعرف أنهم سيمرون منه وجلس على حافة الترعة الصغيرة (المسقة). وفى أقل من ربع ساعة كان هذا الجمع الفرح الذي قضى طول اليوم فى كد ونصب تحت حرارة الشمس المحرقة . يمر امامه وفى مقدمته فتى قمحى اللون جميل الطلعة رغم خشونة اطرافه يعزف على مزمار (أرغول) له نغم شجى يأخذ بمجامع القلوب والرجال حوله (من كهول وشبان) والصغار والبنات يصفقن على نغم آلته إلا ابنة سمراء — رغم لباسها البالى لو رآها مختار النابغة المصرى لما اتخذ أنموذجاً غيرها لنقشه — كانت تملأ الفضاء بصوتها الشجى الحنون وهى سائرة معه كتفاً الى كتف فلم يلبث رضوان ان رأى نفسه فى وسطهم تدفعه يد اللذة مأخوذاً بنغم العازف البارع . وصوت الفتاة الرنان . فرآه القوم وكانوا لم يروه أولا فسكت العازف خجلا وتهيباً . والفتاة حياء . وتقدموا جميعهم اليه للسلام فصاح قائلا : لِمَ سكت يا متولى ؟

وكان متولي هو الفتى للعازف فتقدم اليه خاشعاً احتراماً وليس فى حركته ما يدل على ذل الخادم امام المخدوم. وما لبث ان صافح يد سيده مراراً كما هى العادة عند أهل الريف) وقال :

أزيك يا سيدى رضوان .. اشحالك . سلامات

قال رضوان : ليه سكت يا متولى ؟

قال : هوا بجا الدنيا ما فيهاش خشى .. عايز نزمر كمان جدام حضرتك

قال : لكن أنا كنت مبسوط خالص من ارغوالك .. ومين اللي كانت بتغنى

فتطاولت الاعناق جميعها نحو الفتاة السمراء الحلوة التى كانت تغنى، فوضعت طرف غطاء رأسها (شاشيه) فوق نصف وجهها وأطرقت حياء الى الارض فعرف رضوان انها هى من كانت تغنى وكان يعرفها من قبل لانها ابنة خولى المزرعة فقال :

ست الدار ؟ هوا انتى اللي كنت بتغنى .دانتى عال جوى

يا ملعونه . أعال لما صوتك كده سكتنه من زمان
غنى . غنى . يله يا متولى زمر وأنا أسجف معاكم

فتبسم الجمع عن ثنايا كأنها اللؤلؤ كانت تلمع فى وجوههم السمراء الملفوحة بحرارة الشمس . لو رأتها إحدى ممثلات الأوبرا لحسدتهم عليها

وقالت ست الدار: وأيه اللى عاوز أغنيه لك ياسيدى ؟

قال : اللى يجى على كيفك

فأسرت كلمة صغيرة فى اذن متولى فوضع ارغوله فى فمه وطفق يعزف ولما لبث ان نطق الارغول قائلا .

(إن لاقيتم حبيبي سلموا لى عليه)

فدوى الصفيق وعلا على الجميع صوت ست الدار وهى تغرد كالبلبل . واشترك رضوان فى الرد والتصفيق وهو كاسعد ما يكون حتى أتوا آخر الطريق الى المزرعة فسلموا عليه وتفرقوا وسار هو على مهل نحو الدوار

الفصل الثانى

وصل رضوان الى مأواه فوجد خاله وصهره الحاج مصطفى ومعهما بعض شيوخ القرية جلوساً فوق الحصر على مصطبة الدوار وهم يتجاذبون أطراف الحديث فسلم عليهم وجلس وكان من بينهم ابن شيخ القرية السابق وهو شاب تربى تربية صالحة ولبث بمدرسة دار العلوم مدة وتركها دون أن يتم علومه لوفاة والده واضطراره الى العودة لادارة أرضه. كان هذا الشاب صديق رضوان لم يعاشر أحداً غيره أكثر منه يأنس اليه ويرتاح الى صحبته لما يجده فيه من وداعة الاخلاق والتهذيب وكان سعيداً معه ملازما اياه فى كثير من أوقات فراغه وبلغ من حبه له ان كان يطلب من الله أن يديم عليه صداقة هذا الصاحب المتمثل معه ذوقا ومشربا ولا يطلب بعد ذلك منة

ورغما من أنه كان يخصص معظم أوقاته لمجالسة ابنة

خاله هند والمحاورة معها فى كثير من المواد . فقد ظل يحافظ على مجالسة صديقه وبثه أسراره والانتفاع بآرائه .

وقد رآه هذه الليلة بجوار خاله . فاشفق أن يطلب اليه الدنو منه لان الآن لديه سراً لا كالاسرار الاخرى . . . سراً يفضل الموت على أن يبوح به لأي كان . . وخشى أن يلاحظ عليه صديقه انشغال فكره . ويرى تلك اللهفة التى تعلو صحيفة وجهه . ويسمع عن قرب تنهداته المتوالية فيسأله عن السبب . فينكر . . وهو يضن به وهو صديقه العزيز أن يلاحظ عليه أنه يخفى عنه سرا . .

وبينما هو فى هواجسه هذه إذ سمع صوت خاله يقول:

عمال تجول ياغباشى أن عزبة فتحى بيه حينزلوها فى المزاد العلنى ؟

قال: أيوه والله ياحاج مبروك . . والله كان خاطرى تشترى لك كم جطعه منها . . والله يارجاله دى أرض عال جوي حاتروح بتراب الفلوس .

قال: ألا جول لى هى الارض دى مش جنب طمبشه؟

قال : تمام . بالك لو شديت حيلك وخت لك كم جطعة دى الاشيا تبجا لبن معاك

قال : بس أنا سمعت ان أبو مندور حايزود فيها ودا راجل مرازى مانيش جده .

قال : أبو مندور إيه وزفت إيه يا أخى دنته لو شفت الراجل وهو جاعد جدام داره زى التيس المكتف لكنت تعرف الهيصه الكدابه اللي تملى يجولوها عليه . . ياخى والله يارجاله دى نفخه بس وانتم فاكرين فى الجبه شيخ .

قال الحاج مصطفى : وولاده . . آل صحيح منهم ولد شيخ منصر ؟

قال : دى عندك حيج فيها . . وهو باين الوله الغفير ابن الوطى اللى حدانا . باين عليه أصله من المنصر وانا خايف ليسود وشى معاك ياحج وتجول الحج على الخولى . لكن مايهمش أنا جده وجدود آه ياناري لو أفشته

قال الحاج مبروك : إزاي هو الوله خاين ؟

قال لا لسه بدايم يلعب بديله الايام دى

قال اطرده ياغباشي وحط متولي مطرحه

قال : لالا سيبه كده أأمن . بالك لو طلع جول على العزبه يارحمن يارحيم . أيوه أمال دا ينزل تجليع فى الزرع لما يجيب كاعه وحنا مالنا ومال كده فى هذه اللحظة كان الكرى يلعب باجفان رضوان على غير عادته فاستأذن وقام لغرفة نومه مبكراً دون عشاء

وما خلع رداءه وارتدى ملابس النوم حتى سمع طرقاً ضعيفاً على باب غرفته فقال ادخل

ففتح الباب قليلا ورأى رأس هند تطل منه وقد لفت شعرها بعصابة حمراء مرصعة بالخرز البراق فقام عن سريره وتقدم اليها مهرولا وهو يقول

هند هنا فى غرفتى !

قالت : بلى أتيت... لانى رأيتك تدخل إلى فراشك مبكراً على غير عادتك فخشيت أن تكون مريضاً

قال شكراً لك ياهند . انى مريض نعم ولكنى أظن

ذلك من تأثير تجسوالى اليوم أكثر من ثلاث ساعات قبل الغروب

قالت : وهل لا تذوق طعام المساء ؟ .

قال لا شهية عندى . . وأفضل النوم فارغ المعدة

قالت إذاً (تصبح على خير)

***

تركته هند فظل واقفاً أمام الباب المفتوح ينظر اليها وهى تسير الى غرفتها مطرقة الرأس لانها حسبته مريضاً . فأطربه أن يراها متأثرة لمرضه وعلم أنه حقاً يشغل من فؤادها مكاناً عالياً وتمنى على الله ان تكون العاطفة التى لديه متبادلة بينه وبينها .

وقال فى سره « متى كانت تحبنى — وسأعرف ذلك قريباً — لا يمنعنى مانع من طلب يدها من خالى وهو لا يردنى أبداً ويتمنى من صميم قلبه أن يراها تحت رعايتى وكنفى »

« وفى اكتوبر القادم — بعد الجمع — تكون هند زوجتى

آه يا رباه ما أحلى ذلك اليوم الى قلبي . . فيه يرتبط فؤادي رباطاً شرعياً بقلب أجمل فتاة واطهر غادة . فيزيد عدد الاسرات المصرية أسرة ولا نلبث بعد مضى أعوام قلائل ان ننجب لمصر أطفالا أصحاء تعتمد عليهم مصر متى شبوا وأصبحوا رجالا يتفانون فى حب وطنهم . ويموتون فى سبيل رفعة شأنه »

« من لى بذلك اليوم . . انى أشعر مقدماً بان حياتى ستبدأ فيه وسأقوم بجلائل الاعمال حباً فى هند وتعظيما لنفسى لتفتخر بى كرجل . . »

وتقدم الى النافذة ففتحها . فظهر القمر بدراً يحلق في الفضاء ويلقى بأسلاكه الفضية على ما تحته من أطيب الارض المكسوة خضره يانعة . فأعجبه جلال المنظر وأطل برأسه من النافذة .

وكان يحيط بالدوّار خلاء فسيح متباعد الجوانب متنائى الاطراف . تشرف نافذة رضوان على خصيب رحيب منه قد كسته يد الزارع الماهر ثوب الخضرة الزاهى ورداء النضرة والحياة . تحت قبة سامية لونها كأحسن الالوان رفعها الخالق

جلّ شأنه على عمد لا ترى . وقد برز منها البدر مختالا فخوراً .

فصاح الفتى قائلا : كانى لم أقطن معظم حياتى هنا فى هذا البناء ! هذه أول مرة والله تجلت لى محاسن الطبيعة فيها !

لقد صدق فقد كان لا يرى مثل ما رأى من عظمة وجلال او رأى ولكنه لم يكن ليعبأ بكل هذه المناظر لانها مألوفة لا جديد فيها ولا غريب . فمن جعله يستجلى الآن محاسنها وينظر اليها بعين غير عينه الاولى ؟ . انه الحب . . نعم هو الحب الذى غير رضوان فجعله يسامر البدر ولم يكن له عهد بهذا السمر . . ويستنشق نسيم الليل العليل وقد كان لديه منه الكفاية . ويحملق بعينيه في الفضاء الواسع شارد الذهن تتوارد الافكار الى رأسه بسرعه البرق .

نصف يوم بل أقل منه ! نعم فى نصف يوم قد تغيّر حال رضوان فصار الفلاح الفخور شاعراً متخيلا فى رأسه الف فكر وألف أمنية ! . .

ليت خاله لم يذكر اليوم انه مسافر الي حلوان . . لو لم يفعل لبقى رضوان بعيداً عن غرامه . ولبقى يظن ان حبه لابنة

خاله هند حب أخاء وصداقة. لا حب غرام وعشق. لو فعل لوفر عليه تلك اللهفة التى ملكت عليه حواسه . وخبلت عقلة وأنأت النوم عن جفنة . فجعلته للبدر مسامراً بعد ان كان يضحك من كل ذلك

لبث رضوان فى نافذته لا يعرف كم مر عليه من الوقت وهو فى موقفه حتى سمع وسط السكون المخيم حوله خفقان فؤاد الساعة المعلقة على الجدار قريباً منه . فنظر الى عقربيها فاذا الوقت نصف الليل الا قليلا فاهتز دهشة وسار الى فراشه على مهل وتمدد فوقه . وما زال يحاول النوم حتى هجع ونام هادئاً حتى الصباح

قام من نومه فسمع فى الدوار حركة فوق العادة فارتدى ملابسه على عجل وبرز الى صحن الدار فوجد خاله والحاج مصطفى وبضع رجال من الزراع منهمكين فى حزم طرود كبيرة فطلعت الحقيقة عليه كالبرق اللامع وعرف ان ميعاد سفرهم قد حان و ان هند بعد قليل ستكون بعيدة عنه بمائة ميل وأكثر

وحالما رآه خاله صاح قائلا :

هل صحوت يا رضوان ؟ جهز فرسك يا بنى لانك سترافقنا الى شبين .

فسار مطرقا الى الاسطبل وفى أقل من ربع ساعة كان يقود فرسه البيضاء الى صحن الدوار وبعد برهة قليلة كانت المربه تقل هنداً ووالدها والحاج مصطفى . ورضوان يسير سيراً حثيثاً بفرسه بجانبها فى طريقها الى شبين .

ولم يتكلم مع هند طول هذه المسافة الا بضع كلمات قليلة بخصوص المزروعات والقرى التى تراها فى الطريق

وكأن فراق رضوان قد أثر على الحاج مبروك فلم يرفع رأسه من اطراقه الا لينظر الى وجه ابن أخته والدمع يكاد ينفر من عينيه حناناً وحباً .

وحوالى الساعة العاشرة كان هذا الموكب الصغير قد وصل الى المحطة والقطار باق على وصوله نصف ساعة تقريباً . فجلسوا فى قاعة الراحة (الاستراحة) كما هى العادة وحاول رضوان أن يبدأ كلامه مع هند أولا غير أنه أشفق

أن يتحرج مركزه امامها فيشعر بضعف هو في غنى عنه

وقال في سره « يجب أن أتدرع بأقصى مالدى من قوة حتى تمر ساعة الوداع كانها عادية . »

وكان يقول فى سره « ترى هل تشعر هند بما أشعر من غصة ووحشه . وهل تفكر فى كيف تقضى شهرين بعيدة عني ؟ يخال لى أنها لاتفكر فى كل ذلك وما هى الا عشية أوضحاها حتى تنسى رضوان وكل شيء لتتفرغ لعيشتها الجديدة فى حلوان . . »

ما أمضّ حرارة قلب العاشق . . وما أسرع ماعشقت يارضوان فتملكتك هذه العاطفة وأنت خاضع مستكين ! دق الجرس ايذاناً بقرب وصول القطار . فرفع رضوان رأسه وتقابل نظره بنظر هند فالفاها تراقبه وفى عينها أثر لدموع تترقرق . .

انها توشك أن تبكى لاجل فراقه فهى تفكر فيه حقاً . وقد ظلمها وظن أنها لاتنزله المنزلة اللائقة من فؤادها ولكن ترى هل تحبه ؟ . أهل تكن له وداً خالصاً كما هى

الحال لديه ؟ . هذا ماسيظهره المستقبل قريباً ولننتظر

وأخيراً دنت ساعة الرحيل وقدم القطار يعربد ويصفر . وما هى الا لحظة حتى سار فى طريقه الى طنطا يقل هنداً ووالدها وخالها .

« أو قد مضت ! . لقد كانت هنا الآن امامى فما أسرع ماخطفها البخار وسار يقطع الفيافى ليلقى بها فى مكان بعيد . . بعيد جداً لتمضي شهرين . . شهرين ! . ستين يوماً كاملة . . وما تكون حالتى أنا ! . »

قال رضوان هذا لنفسه وهو يكاد يبكى لولا خشيته أن يراه خادمه . . ولكنه بكى بغير دمع وسالت دموع قلبه بدلا من دموع مقلتيه ! وما لبث ان انثنى الى الوراء بحركة عنيفة وهو ثائر النفس ملتاعا حزيناً .

وفى أقل من ربع ساعة كان فى طريقه الى القرية والفرس تسير به سيراً حثيثاً وهو مرتفع الرأس ينظر الى الافق ببصر شارد

وصل رضوان بلدته حزيناً كئيباً ودخل تواً الى غرفته وأطلق لعبراته العنان حتى نضب ماء عينه . وكأنه شعر بضعفه فكبر عليه أن يكون باكياً ضعيف القلب وهو من يعهد في نفسه دائماً قوة الارادة والجلد وصاح غضوبا :

« واخجلتاه . لقد بكيت ولا بكاء امرأة ! . فأين جلدى وصبرى وما كان لعينى ان تنهنه عبرة واحدة فيما مضى ! . فهل تغير الحال وتبدل ! . تالله لقد تمنيت أن أكون في عداد الهالكين مذ رأيت نفسى دامع العين مرتجف الشفتين صبابة وغراما . فمن لى بقلبي أنهشه نهشاً حتى لا يخفق طوعا لهذا الغرام الملعون القاهر . . . الا لو كان الحب كما أرى وأشاهد لكان بئس العاطفة . . عاطفة تنال من شجاعة المرء فتجعله ضعيفاً خائر العزيمة . »

لقد لعن الحب ! . وما درى أن هذه العاطفة الطاهرة هى أرق عاطفة يقدرها الله لانسان . . بها يستطيع المرء أن يكون وديعاً كالحمل فى أشد حالات غضبه . . بها تصعد

روحه لتناجى الطبيعة الهادئة فتغرد مع البلابل وتسير مع النسيم العليل . وتطرب لخرير الماء الفضى العذب . . وتنصت لسجع الحمام ومناغاة الطيور . . وتسبح فى زرقة السماء بين السحب البيضاء . . وترقص تحت أشعة الشمس الذهبية . وبين ظلال الاغصان الوارفة . ورائحة الزهور تعبق فى الفضاء وتملأه عبيراً زكياً . .

ألا رحمة لذلك الفلاح البطل . لقد أحب فكان حبه صميم الحب . فقاوم وخضع فى النهاية . . ظهر حبه بتجربة صغيرة فشعر بأن فؤاده يفيض بهذه العاطف الجديدة ولا تابث ان تطفح عن جوانبه . فبكى حناناً واشفاقا . أفرج عن بنات مقلتيه . فكانت كل دمعة كأنها هزة كهربائية ينتفض لها جسمه . . وحاول مغالطة نفسه غير ان حالته كانت ظاهرة وغرامه واضحاً . فرضخ وسلّم خاضعاً لهذا الفاتح القاهر .

فما فائدة البكاء وقد نفذ السهم وقضى الامر . .

وبينما هو على هذه الحال اذ سمع خادمه ينادي من الخارج : سيدى رضوان . . سيدى رضوان .

فقام يسعى اليه وهو يترنح كالثمل . وسأله عما يريد فاخبره بأن صديقه منصوراً يريد أن يراه وهو الآن منتظراً إياه في المضيفة (قاعة الاستقبال)

صديقه منصور ينتظره ! ولمَ ؟ أتراه أتى لمسألة مهمة ؟ وهل يقابله ؟

ردد هذا لنفسه قبل أن يقصد المضيفة وهو مشتت الافكار . فهل يمتنع عن مقابلة صديقه ولمَ ؟ لقد خشى أن تنم عبراته (أثرها في عينيه وعلى صحيفة خده الشاحب) على ما انطوى عليه فؤاده من لواعج . وهو يرجو أن يستطيع اخفاء سره عن صديقه الى الابد لو أمكن . فحضور ذلك الصديق في هذا الوقت قبل أن يتماسك ربما فضحه فدرى بما يريد أن يكتمه عنه وعن كل انسان .

ولكنه عالج هذا التردد وقرر رأيه أخيراً على مقابلته فسار اليه .

السلام عليك ياشيخ منصور .

فرد عليه التحية وجلس رضوان بجواره .

قال : كيف حالك يا رضوان أهل عدت الآن من شبين ؟

قال : نعم يا منصور لقد عدت حالا بعد سفر القطار

قال : وهل كنت راكبا فرسك أم أتيت بالعربه ؟

قال : لا بل راكبا فرسى (عبله)

قال : تالله يا رضوان انك محسود على شرائك هذه الفرس من الخواجه خورى . ألا تدرى أن ابن العمدة فوزى عند ماعاد من أوروبا مع أخيك حسن دفع للمسيو خورى ضعف مادفعت ليشتريها فلم يقبل وهو الآن يكاد يتميز غيظاً لانه فضلك عليه وباعك اياها بأقل مما عرض عليه ثمنا لها ؟

قال رضوان : وهل تظن أن فوزي يحقد علىّ بخصوص هذه الفرس ؟

قال : نعم وقد سمعته يقول . ان لم استطع الحصول عليها فلا أقل من دس السم لها فى العلف بواسطة أحد رجالى .

قال : يالله وهل يفكر فى أتيان هذه الجريمة ! أين ماتعلمه

فى أوروبا ! . لقد أصبحت أفكاره كافكار رجل ثائر على الطبيعة شرس الاخلاق جلف لا رحمة لديه ولا قلب . . .
وهل سمعته يتكلم هكذا وأنت حاضر ؟

قال : كلا انه لو رآنى لما فاه بحرف مما قال ولكنى كنت ماراً وراء شباك مضيفتهم وهو يحادث شيخ الخفر . فسمعت هذا القول عفواً . وعلى ذكر هذه الفرس أهل أنت عازم على حضور مولد سيدى المصيلحى ؟

قال : نعم وهو فى الاسبوع الآتى على ما أظن وسيكون أخى حسن هنا فى بحر هذا الاسبوع مع بعض أصدقائه

قال : وهل ستنزل فى البرجاس ؟

قال : والله يا منصور لا أدرى أهل أجد فى نفسى رغبة للهو أم لا .

قال : انى أراك متغيراً يارضوان وقد لاحظت عليك هذا التغيير منذ أتيت فهل جد شىء ؟

قال : كلا

قال : لا لست كعادتك ولقد ذكّرنى حالك اليوم مافعلت

أمس اذ قمت مبكراً على غير عادة . فهل تكتم عنى سرا

أجاب لا يا صديق : انى أشعر بوحشة فقط لسفر خالى وتجدنى أخشى عليه من مرضه الجديد الذى حير الدكتور خيرى طبيب البندر

قال : أليس خيرى افندى هذا هو من كان معك فى المدرسة ؟

أجاب : بلى هو بعينه ولقد رافق أخى الى فرنسا لتتميم دراسته فعاد طبيباً وجراحاً ماهراً يحمل أثمن الشهادات. أما أخي فعاد . . ولكن ما علينا

قال : عاد يتأبط ذراع أجمل الغادات :. ألا لو التفت أخوك لدراسته . لعاد هو الآخر مهندساً بارعاً ليخدم وطنه وشعبه

قال : لو . . انى والله لاعجب من أمر أخى وهو لا يعبأ بنا . منهمك في ملاذه لا يردعه رادع وتلتف حوله فئة سوء من أصدقائه العقارب حتى أتلف نفسه وأضاع معظم ارثه بتبذيره

وقد سمعت فى هذه الايام أن اليد التى زجت به الى ميادين الفحشاء . وقادته لمواخير الفساد وبيوت الدعارة ومحال المسكر . قد ألقت به فى أماكن الميسر فاصبح مقامراً من أول طراز . لا يرى الا جالساً امام الموائد الخضراء يلقى بالاموال جزافاً ولا رادع من ضمير ولا من الناس فيا رحمتاه لهذا الشقيق الشقى ! . .

وسترى أن سيكون لى موقف معه شديد متى أتى ويا حبذا لو شاركتنى في ردعه بالحسنى علّه يرعوى فينجو من الهلاك . ألا لو فعلت يا منصور لكانت لك عندى منة لا أنساها ولكنت أشكر خلق الله لصنيعك معي

قال: ولكنى أخشى أن يثور. فاخوك عنيد شاذ

قال : جرّب . وسأكون بجوارك أنصرك عليه

قال: سأفعل (اكراماً لخاطرك) ومتى تظنه يصل الى هنا؟

قال : لقد طلب أن نرسل له العربة يومين متواليين (باكر وبعده) ويغلب على ظنى أنه سيقدم باكراً

قال : لنرجع الى مسألتك أنت . انك تخفى عنى سراً

واقسم على ذلك . فاكشف لى عنه علّنى انفعك

قال : قلت الصواب يا منصور ولكنى أريدانأ كتم عنك هذا السر بصفة خاصة

قال : ولم ؟ .

اجاب : انه سر مشترك وليس سرى وحدى

قال : ولكنى الح عليك بأن تبثى اياه

قال : ما دمت تريد فاسمع . . انى اشعر بأن (هنداً) تشغل من فؤادى مكاناً رفيعاً !

قال : أهذا كل سرك ! . ما اطيب قلبك يارضوان . . وهل تظن انى لم طالع هـذه العاطفة الطاهرة فى صحيفة وجهك من زمن ؟ .

قال : اتقول حقاً ؟

قال : بلى وربى . لقد كنت اراك تشب وتكبر وهى بجوارك فاطالع هناءك . حتى عرفت اخيراً . انك احببتها حب الخطيب لخطيبته . وما الذى يخيفك من هذا الحب ؟

اجاب : اخشى الا يكون متبادلا بيننا فأموت كمداً

قال :هذا موطن الكلام . ولكنه لا يمنعك مانع من من بث هواك لها فان كانت عندها نفس العاطفة اطلب يدها من خالك وهو يتمنى ذلك اليوم الذى يرانا كما فيه مرتبطين بهذا الرباط المقدس

قال : سأفعل واطلب من الله ان يحقق احلامى

الفصل الثالث

ظل رضوان وصديقه يتحادثان بخصوص حب الاول لهند وما يجب عمله حتى قاربت الساعة الرابعة بعد الظهر وقد تلطف الجو وخفت حرارة الشمس فاستحسن رضوان ان يقوما بجولة صغيرة بين المزارع وقد شوقه إلى ذلك ماحدث له أمس بين متولى ورفاقه . ولم يسيرا الا قليلا حتى كانا فى صميم الغيط تكتنفهما الخضرة من جميع الجهات . وهمهمة الزراع تطرق صماخ أذنيهما من بعيد . وخوار البقر وبغاء الخرفان وأصوات الصادحين وصوت مزاميرهم أو نايا تهم يملأ الفضاء ويجعل للمزرعة رونقا وحركة حياة زاهرة

فابتسم رضوان وصاح بصديقه قائلا : ألا يا منصور لو كنا أبينا إلا تتميم دراستنا وانتهى الحال بنا الى احتراف مهنة أو التوظف بمصلحة من مصالح حكومتنا أكنا نكون أهنأ عيشاً مما نحن فيه الآن ؟ . تالله انى لاقنع بكسرة صغيرة من الخبز مع هذا الهناء ولا أطمع فى شيء

بعد ذلك . ولو فعل كبار المزارعين مع أولادهم كما فعلت بنفسي أنا لكان لنا جيش عاقل متعلم بين صفوف المزارعين يبث فيهم روح الرقي . وينهض بهم من وهدة الخمول والبقاء على القديم حتى يكونون عدة لبلادهم يخدمونها خدمة حقة كاملة . ترفعها الى قمة المجد وتنمو ثروتها فيصبح تربها تبراً وأرضها البورجناناً تثمر شهى الثمر وتأتى بالخير الوافر . ألا تدرى يا منصور انى باختلاطى بأنفار مزرعتنا ومعاشرتهم معاشرة حقة (حتى لأحسب كفرد من أفرادهم) جعل هؤلاء يجدون فى عملهم ويتفانون فى سبيل مرضاتى

وقد ظهرت نتيجة تعاليمي لهؤلاء الفروبين الوديعى الاخلاق فكان والحمد لله محصول المزرعة وافراً جداً فياحبذا لو فعل أولاد كبار المزارعين مثلى

قال منصور : معاذ الله ! ان القليل جداً من يعمل عملك أما الاكثرية فهى طماحة لنيل الوظائف أو سكنى المدن وهم يفضلون الظهور فى مقاصير الاوبرا وبقية أماكن اللاهى ليتبارون فى الفخفخة والتبتك على التجول بجوالك

الآن بين حيضان المزروعات فوق الحصى والارض الخشنة اني لا أقول ان مشاهدة التمثيل عيب يجب البعد عنه بل لو اقتصروا على ذلك لما نالهم منه ضر بل الخطر هناك كامن بين بقية ملاهيهم الاخرى وأنت أعلم بها منى لأنك كنت طالباً (مطربشاً) طبعاً عرفت أكثر هذه الملاهى قبل أن تعشق الغيط وخشونة العيش بجواره

قال رضوان : صدقت يا منصور . وحدث عن باهظ النقود التى تنفق فى هذه السبل . ولقد بلغنى ان أخى سامحه الله تلتف حوله زمرة كانت فيما مضى من أولاد الاغنياء الوارثين فأصبح اكثرهم لا يملك قوت يومه والفضل فى ذلك لاسرافهم ! . . وهم الآن يتعيشون مما يبذره حسن بينهم من الذهب والفضة

قال : وهل تعرف من بينهم أحداً ؟

أجاب : لا أظننى أعرف اكثر من واحد أو اثنين . والذي أعرفه اكثر من الجميع هو بهجت افندى محمد . وهو شاب متعلم نادر الذكاء ولا عيب فيه قط . وهو صديق

حميم لى ولاخى منذ الصغر . ولقد حاول — على ما بلغنى — فى كثير من المواقف أن يقوّم اعوجاج أخى فلم يفلح . ولم يشأ مع ذلك أن يتركه فريسة لاصحابه الآخرين بل ظل يعاشره ويقف سداً منيعاً — فى بعض الاحيان — بينه وبين ملاذه

قال : واهاً لهذا الصاحب انه نعم الصديق . انى أود التعرف به متى أتى مع حسن

قال : طبعاً ستعرفهم جميعاً . والآن أظن الاحسن أن نعود الى الدوّار قبل أن تغرب الشمس

* *
*

أصبح الصباح فأرسل رضوان العربة لشبين لتأتى بأخيه حسن وأصحابه . وما وافت الساعة الحادية عشر حتى وصلوا الدوار وكلهم يرتدون ملابس أنيقة من (آخر موده) ورائحة العطر (الغارقين فيه) تعبق فى الجو وتملأه عبيراً زكياً . فصافحوا رضوان وصديقه منصور وأخذ الكل

يتحادثون حتى وافت ساعة الغذاء فقاموا الى المائدة وا كلوا ما لذ وطاب

ولم ير رضوان حتى هذه اللحظة فيهم عيباً وسر بهم سروراً عجيباً إذ رآهم كلهم متعلمين من أبناء العائلات المعروفة وخشي أن يكون قد أساء الظن بهم وان ما بلغه عنهم ما هو الا وشاية سافلة . واستبعد أن يكون مثل هؤلاء الشبان الفرحين من الطراز الذى ظنه منعكفاً ليل نهار على احتساء الخمر ولعب الميسر ومعاشرة العاهرات فى بؤر الفساد ومواخير التهتك ؛ فما الذى أتلف أخاه اذاً ما دامت هذه الزمرة على ما رأى ؟

هل يصح أن يشبه هؤلاء الصحاب بستار التمثيل الذى يبهر النظر ما دامت الانوار تتألق حوله وحتى اذا ما أطفئت هذه الانوار ظهر لك الستار حقيراً تأنف النظر اليه ؟

وهل هم حقيقة كما يظن وكما بلغه .أم هم كما رأى وشاهد فى هذا الوقت القصير ؟

ولكن رضوان لم يكن من الناس الذين يؤخذون سريعاً بل لقد علمته التجارب على صغر سنه كيف يبقى حكمه الى النهاية فيدلى به ويكون صائباً ولا يخطىء إلا نادراً جداً

فاحتفظ بحكمه وظل يجس نبض أصدقاء أخيه وما هى الا جولة منه ومنهم زالت الكلفة بينهم حتى انكشف الستار وذل اللسان وظهرت الاخلاق مجردة لا يعلوها طلاء

فاصدر حكمه وكان عادلا . وقال فى نفسه .لقد صدق من وصفهم لى فيا رحمتاه لهم ولاخى !ألا نو طلقوا سيرتهم المعوّجة وبذلوا ماحصلوا عليه من علم وأدب وهبوا من رقدتهم ودماؤهم الحارة تجرى فى أبدانهم القوية الصحيحة لكانوا قوة لوطنهم يفتدونه بالمهج الغالية. . .وا رحمتاه لمصر. مصر المسكينة . . انها فى احتياج لاصغر حقير كأكبر امير ليدافع عنها ويعمل لاجلها . .فما بال هؤلاء عنها معرضون ايأسا ؟ . وقد فاتهم قول ابطال المدافعين عن أوطانهم (لايجب ان يترك الابن أمه لانها مريضة أولانها تعالج سكرات الموت)

أم رضاء بالحالة ؟ . وفاتهم قول من قال (انى لأعمل لوطنى حتى آخر رمق فاما الحرية التامة أوالموت . وموتى فى سبيله شرف لى يحفظة لى التاريخ وابناء وطنى) وكان رضوان ينظر اليهم نظرات فاحص ناقد ويود لو يعطيهم درساً قاسياً غير انه فطن الى أنهم ضيوفه وليس من الادب فى شىء أن يعاملهم بقسوة أو يظهر لهم ما يود أن يقوله عن سيرهم وحالتهم

وكان يمكن أن يطول تأمله هذا لولا ان سمع أخاه قادماً وهو يقول:

لقد وصلنى هذا الخطاب الآن وأظنه من مراد فاسمعوا وأخذ قرأ بصوت عال

صديقى حسن بك المحترم

بعد السلام والشوق . أزف اليك بشرى ألا وهى سفر احدى نجوم مصر الزاهرة الى ثغر الاسكندرية الذى ستسافر اليه على ما بلغنى بعد أسبوع . وهى ستقيم فى منزل منفرد (ڤيلا) بكرلتون ولاأريد أن أطنب لك فى وصف

محاسن هذا النجم الفريد والعصفور (اللي على كيفك) .
بل أدع ذلك الى ما يمدحني تراها أنت وتحكم بنفسك .
وسأكون واسطة التعارف بينكما وعسى أن تكون راضياً
عني . . . وفاتني أن أقول لك أنها رومانية الاصل تعرف معظم
اللغات الحية وأخلاقها وعوائدها شرقية صرف . فهنيئاً لك
مقدماً لاني واثق من أنها ستفتن بك كما وانك ستعشقها من
النظرة الاولى سلامي الى الاصدقاء » مراد

فصاح أحد أصدقاء حسن وهو يدعى رضا قائلا :

لله در مراد فهو لا ينفك عن اتحافنا بالاخبار السارة!

فهمس رضوان في أذن منصور قائلا : أرأيت !

قال : قواد ولا شك

قال : ذلك المدعو مراد ؟

أجاب بلى وهؤلاء من هذا القبيل . ويدعون انفسهم
أصدقاء . . ألا لعنة الله على قوم نضب ماء الحياء من وجوههم

قال : ألا توافق على اظهار استيائي امامهم ؟

أجاب : كلا . يجب أن تختلي بأخيك وتكيل له النصح

وما لبث أن استلفت انتباههما سؤال من المدعو خليل افندى وهو يقول :

ألا قل لى يا رضا ما عزمت على أن تفعل فى هـذا الشتاء القادم

قال : وما تريد أن أفعل . انى لا أغيّر خطتى التى أسير عليها

قال وما هى

أجاب : تعلم بانى أعزب . ومن كان مثلى لا يهمه غـير نفسه ما دام يعيش بمفرده . ودخلى صـغير (على قدـــــ) والاشـتغال فى المصالح أو غـيرها الايام دى (يغور) فأنا أهيص على كيفى بشرط أن أحافظ على دخلى الصـغير من الانقراض خوفاً أن أصبح (على الحديده) ولا مؤاخذه كما أصبحت انت . . . فمثلا في هـذا الشتاء أسافر الى زفتي — مسقط رأسى — وهناك لى عمة عجوز بخيـلة ترى نور السعادة أولا فى لمعان الذهب بخزانتها . وثانياً ـــــ فى فجر ابتسامى — لانى على زعمها البقية الباقية من (ريحة) المرحوم

أخيها — وهى لا تحل عن كيسها العتيق إلا لتولم لى الولائم الشهية فأرى نفسي غارقاً فى بحار الاطعمة الفاخرة . إلا انى أضطر لشراء الخمر من جيبى لاشربها خفية عنها . لانها تفضل أن تصاب بالعمى ولا تري الكاس فوق فمى . . . وبعد أن أمضى هناك شهراً كاملا يمر كأنه ساعة . أعود ادراجى الى مصر مرغماً لانى لا أقوى على مفارقة أصدقائى أكثر

قال بهجت : وهل لها أولاد عمتك هذه ؟

أجاب : لا . لا (تف من حنكك) انى الوارث الوحيد

قال : اذا ستصبح بعد موتها موسراً لا يستهان بك

قال : بالطبع

قال وماالقدر الذى تنوي أن تهبه للجمعيات الخيرية ؟

قال : رجعنا . . اسمعوا يا خوانا . لقد ظننا ان بهجت عدل عن نصائحه الثقيلة . فها هو يعود اليها . .

قال لو اتبعت نصحى لما ندمت فأنا أدلك على طريق تنتهى بك الى السعادة الحقة...

قال يحلها ربنا لما أورث. يا أخي هو ربنا كان خلقك واعظ

فلم ير رضوان بداً من تداخله الآن وقال :

ليسمح لي السيد رضا افندي ان أقول ان بهجت افندي قال القول الحق فهو يريد أن يقول انك أو غيرك لا يعرف اللذة إلا من طريق البر والاحسان وليس من الطريق التي تسيرون فيها. ولقد جربت الطريق الثانية فما يمنعك من تجربة الاخرى

قال رضا : أوافق رضوان افندي على ما يقول . انما هل أنا ورثت حقاً أم حالتي لم تتغير ؟

قال رضوان : طبعاً لم ترث . انما قلت هذا بمناسبة قول بهجت افندي . واني أود من صميم قلبي أن أرى شبانا تهرع مسرعة الى هذه الطريق الصالحة . ويحزنني ان أرى اخي حسن قد نفض يده من ذلك . فهو يبذل الذهب في سبيل ملاذة ولا يفكر في التصدق بقرش على فقير أو عائل تعيس

فانثنى حسن الى اخيه وصاح به مغضباً :

ليس هذا وقته يا رضوان . ولاحظ أنك الاصغر . . .

قال وهل محرم أن يلقى الاصغر كلمة نصح فى أذن شقيقه الاكبر . أن صدرى ليضيق بما أريد أن أقوله لك . ولكن على قولك (ليس هذا وقته والآن) . .

قال هذا وترك القاعة منفعلا وتبعه منصور . وكأن أخاه حسن قد تأثر حقاً فلبث واجماً مكفهر الوجه غضباً فسرى هذا الكدر الى الجميع فانفرط عقدهم وما لبثوا ان تفرقوا فى الحديقة .

الفصل الرابع

أهذه أنت يا هند ؟ . .

قال هذا القول الحاج مبروك (والد هند) وقد مضى عليه شهر كامل وهو ملازماً فراشه وقد أضناه المرض وغيّر حاله فأصبح فى حالة من الضعف يرثى لها

قالت : نعم أنا هند يا أبتاه

قال : وأين رضوان ؟ . انى لا أراه

قالت : لقد جلس فى القاعة الكبرى مع خالى وحسن

قال : هل أتى حسن ؟

أجابت : نعم بقطار الظهر

قال : ناديهم جميعاً

قامت هند الى القاعة الاخرى وبعد قليل عادت ومعها خالها الحاج مصطفى وأولاد عمتها حسن ورضوان

كيف حالك يا خالى ؟

قال حسن هذا القول فنظر اليه الحاج مبروك نظرة رغم ضعفها الا أنها حوت كل ما يمكنه له من عدم الرضى وما لبث ان تبسم له تبسمة صفراء وقال :

صبح النوم . . ألم تعرف أنى مريض الا اليوم

قال : عفواً يا خالى لقد كنت فى شاغل عن كل ما حولى بسبب اشتراكي الجديد مع خليل أفندى فى التجارة

قال : تقول تجارة ! وأية تجارة هذه ! ومتى كان ذلك؟ أهل صرت تاجراً (على الاواخر) ؟

قال — بلى ولو صدق ظنى لكان الربح جزيلا جداً

قال — يسرنى أن أراك رجلا فى آخر أيامى. غير انى (أقول لك الحق) لا أصدق أنك تأتى عملا صالحاً الا متى رأيت بعينى

قال — يا لله . . وهل بلغ من سوء ظنك بى أنك لا تصدق نهوضى بعد كبوتى. انى خلقت خلقاً جديداً. فاصبر علىّ قليلا ترى ما يسرك ريثما أنهض تماماً وبصلح حالى . أما الماضى فاود أن تنساه...

قال — وهل أنسى كل ذلك الماضى مع ما حواه من فضائح ونقائص ! ألا راجع صحيفة حياتك تجدها لما لا يفتخر به وان هى الا صحيفة سوداء مظلمة مملوءة فجوراً وغروراً ..

قال أراك تشير الى ماض مضى : ألم أطلب اليك أن تتناسى ذكر الماضي . . أن هفوات الشباب تغتفر بما تراه فحق لى أن أنتظر منك امهالا ريثما أنهض وصبراً ريثما أصلح ما فرط

قال — متى أرى ذلك اليوم . . نعم متى أراه . . . ولكن قل لى . . اتعاهدنى وانا على فراش المرض . الذى لا ادري اهل اشفى منه أم لا . أنك مصلح حالك من الآن ومغير سيرتك العوجاء ؟

قال — اعاهدك على ذلك امام الحاج مصطفى واخى رضوان وهند

قال — وانا اصدقك من الآن. فافرح يارضوان انك قد وجدت أخاك بعد ان فقدته حيناً

قال رضوان : شكراً لله على ذلك . فتعال ياأخى عانقنى

وبعد صمت برهة تمطى العليل فى فراشه ببطء وما لبث ان قال : اسمعوا ماأقول .. انى عارف باشراق على الموت فلست لانخدع أو أخدع نفسى لانى على يقين من حلول اجلى . وقد كنت اخذت على نفسى ان اقوم بمشروع صالح جليل . كان غرضى منه خدمة الانسانية . وهو الاحسان الى بنى الانسان بقدر استطاعتى ولكنى الآن اغادر عملى أو بالاصح مشروعى دون تنفيذ . وقد اصطفى من أراه يصلح لاتمام هذا العمل . وكنت حتى أمس لاأفكر فى غير ابنتى ورضوان وما عساهما يفعلان بعد موتى

اما الآن وقد وجدت ابنى الثانى — وآمل ان اكون وجدته حقاً — فقد اصبحت لاأندم على تفكيرى فى مستقبل ثلاثة من أعز الناس لدىّ

فثروتى كما تعلمون تنحصر فى (أطيانى) فقط وهى كل ماأملك وتقدر باثنى عشر ألف جنيهاً مصرياً باعتبار الفدان ستين جنيهاً (هذا قبل غلاء الاطيان) وكان يمكن أن أخص ابنتى الوحيدة بهذه الثروة كلها الا انى لا أميز بينها

وبينكما فانتم جميعاً أولادى ولذا فسأقسم هذه الثروة بينكم (أنتم الثلاثة) حتى يصبح مايخصمكما من أرضى مضافاً الى ما تملكان يعادل ما أبقيته لابنتي

غير انى لا أحسب حساباً لما أضاعته يد حسن المسرفة فلا أعوض عليه شيئاً منه بل أتركه هكذا عقاباً له . ولديّ غير مزارعي نقود مدخرة هى كل ما فاض عن حاجتى وقد نذرتها من قديم للفقراء والتعساء فهى ملك حلال لابنتى تصرفها فى سبيل الخير تحت اشراف الحاج مصطفى

لقد كنت قادراً على السير فى سبيل البر بخطى واسعه غير انى لم أفعل الا القليل التافه ولم أتزود من الاعمال الصالحة الا بعض من كل فأنا أرغب أن تنفق هذه النقود فى سبل صالحة .

بقى لدى شىء آخر أود أن أكون غير حكم فيه واتركه لكم للحكم وهو مستقبل هند فى حياتها العائلية أى بعد أن تصير زوجة . وكان الواجب أن أنتخب لها الزوج الصالح الموافق قبل موتي كما هى العادة عندنا غير انى أترك

ذلك لها هي لما أعهده فيها من الاصابة دائماً وعدم الزلل

ونظر الى ابنته هند فالفاها توشك أن تغادر القاعة حياء فصاح بها:

بل البثي يا بنية اذ يجب ان تسمعين كل قولي . فأنا أرغب في هنائك حتى أرقد في رمسي مستريحاً

قلت يجب أن تختار هند زوجها أو على الاقل يكون لها حق المعارضة في البت في مصيرها . وقد لاحظت ان رضوان ينزلها من نفسه مكانة الشقيقة العزيزة وهو حريص على رضاها ولست أدري ان كان ينظر اليها نظرة الخطيب أم الشقيق . أما حسن فلم يعاشرها المعاشرة الكافية ليبلو طباعها وتقف هي على أخلاقه وعاداته . وهي حرة تختار من تشاء منهما الا ان كانت تمانع . وقد قلت اني لا اكون حكماً أبداً في هذه المسألة الهامة انما انتظر رغبة ابنتي فاحققها وابارك من توقت فيه . والآن اتركوني وليبق معي الحاج مصطفى فقط

***

خرج حسن ورضوان وقد فوت هند الى غرفتها فاخذت تفكر فى كلمات والدها وما زالت تقلب الحوادث على أوجه كثيرة حتى تمثل لها رضوان وعيشته معها كل ذلك الماضى وتذكرت كم مرة جلست اليه وهما كأهنأ ما يكون وكم مرة سارت واياه كتفاً الى كتف تحت الاشجار اليانعة بأوراقها الزاهية وروتقها البديع وكم مرة كانت تسمع صوته وسط تغريد البلابل فى حديقتهم فكان صوته هو ألذ وأطرب لسمعها فهل ذلك لانه ابن عمها . أم هناك عاطفة أخرى ؟ . .

وهنا أحمرت خجلا امام هذه التخيلات واخذ قلبها الرقيق يدق سريعاً

وهل تحب رضوان ! . رفيق صباها ؟ وما الذى يمنعها من الاعتراف بذلك لابيها حتى يباركهما وتصير زوجته ؟

اشفقت أن تكون منزلتها فى فؤاده أقل من منزلة المحبوبة . وما العاطفة التى يظهرها لها الا عاطفة صداقة وولاء

ولو درت ان قلبه يذوب الآن لوعة وحباً . . لو درت انه يعبدها ويسفك آخر قطرة من دمه فداء لدمعة من

دموعها لما ترددت فى اختيارها اياه فهو نعم الزوج يكون لو تسمه الله لها

وما درجة حسن لديها ؟ . انها لم تره إلا نادراً جداً ولا تعرف أخلاقه ولم تشعر بأقل عاطفة نحوه أما اليوم وقد ظهر امامها وحضر كلام والدها بشأن زواجها فقد كانت تتصور شخصه امامها وهى تنظر اليه خلسة من بين أهدابها الناعسة وتقارن بينه وبين رضوان :..

وهل يحبها حسن ؟ . لا تعرف ذلك طبعاً ولكن لو أحبها لكان الفرق بين حبه لها وحب رضوان هائلا جداً وما درت المسكينة ان المقارنة بينهما عبث . وان رضوان رجل . . أما حسن فلم يكن رجلا فى حياته الماضية ولا نعلم ان كانت ستعلمه التجارب كيف يكون رجلا

وهل تحبه هى ؟ . هذا سؤال لم تستطع الاجابة عليه فبقيت هكذا تنتابها الافكار وهى لا تستطيع أن تبت في أمر حياتها . . فى أمر مستقبلها الهائل ولا تعرف كيف تلتقى الزوج الملائم . . امامها حسن ورضوان . وقد كانت تظن انها

لا تتردد فى انتقاء الاخير فاذا بها تفكر فى آخر بجواره لم تراه حتى حسبت انها موثوقة اليه بوثاق من نار ! . فظلت تفكر فيه كثيراً وأفكارها تجوب الجو المحيط بها بسرعة البرق . . وكيف لا وهى فى سن الشباب والنضارة تلك السن التى تكتنفها خواطر الحب وهواجس الغرام

وما لبثت ان قالت فى نفسها سأرى فيما بعد فالى الغد ! .

الى الغد ! . ولم لا تبت فى أمرها اليوم ؟ أهل هناك تردد ؟ الى الغد ! . وكم في الغد من سعادة ونحس ويأس وأمل . . وكم فيه من قنوط ورجاء واحلام تحقق وتكث للعهود . . ألم تكن تحب رضوان ؟ يا لله . . وهل أسدلت ستاراً على تاريخ حياتها مع ذلك البطل المغرم ؟ ألم تكن تشعر بأية عاطفة نحوه . . ألم يتحرك وتر واحد من أوتار فؤادها العديدة أثناء معاشرتها له ؟ تالله هذا غريب والنتيجة مرعبة . . أهل لم تلاحظ عليه شيئاً ساعة الوداع وهل لا ترى الآن انه يكاد يذوب لوعة . . فان كانت

تعلم كل ذلك أهل يحلولها ان تراه يعاني أشد الألم لانها كانت قاسية عليه ؟ فلنتركها تناجي نفسها وتبحث في طيات عواطفها عن هنائها ولا نبحث معها فهي أدرى بنفسها منا . وما دام اعتقادنا أن حياة لا يخالطها الحب هي حياة ضائعة فلا يجدر بنا ان نلوم هند في انتقاء زوجها لانها طبعاً لاتدلي برغبتها إلا متى كانت توافق عاطفة قلبها

*
* *

كان رضوان في هذه الساعة يجلس الى أخيه حسن وقد خيم الصمت عليهما . الاول مصفر وترتعش شفتاه صبابة وغراماً وهو يضرب بافكاره في عرض الافق بسرعة البرق وبصره شارد لا يستقر

وكأني به يقول لنفسه مناجياً : هل ابنة خالي اصلح من تستطيع جلب السعادة الي ؟ . وهل في ذلك شك ! انها جميلة لا أرى أجمل منها فيمن رأيت وقد بكى قلبي لفراقها وأنا أعرف من نفسي أن تلفي وخسارتي لاتكون الا من

وهنا نظر الى أخيه فوجده مطرقا الى الارض برأسه تنازعه الافكار . فهل هو الآخر يفكر مثله وهل فى مثل مسألته ؟

فقطع حبل الصمت وصاح باخيه حسن يقول :

فيم تفكر ؟ .

قال : أفكر فى قول خالنا اليوم

قال : وهل ترى فيما صنعه لأجلنا أى تقصير . انه فعل كريم بار وانى لافتخر به كمال شهم عظيم

قال : انى اشكره كثيراً على ما صنع . انما ما يهمنى الآن هى مسألة هند

قال : تعنى زواجها ؟

قال : بلى . فقد رأيتها قلت فى نفسى « هذه الابلة يا حسن لو كانت زوجة لك لطلقت سيرتك الموجعة ونهضت من كبوتك ؛ فهى أقدر على اصطلاح شأنك من نفسك »

فاصفر وجه رضوان لهذا القول حتى حاكى وجهه

مائت وحاول الكلام فلم يستطع وأخيراً عالج القول فخرج الصوت من حلقه كالفحيح وقال

وهل تتزوج هندا أنت يا حسن ؟

قال : نعم لو قبلت أن أكون لها زوجاً

فصمت صمتاً هائلا وأصابه شبه دوار فنظر اليه أخوه مبهوتاً قائلا :

ما بالك يا رضوان

فرد عليه مغالباً ضعفه قائلا : لا شيء . انما كأني أشعر بدوار في رأسي . وأظن ذلك لاني لم أرقد أمس رقاداً هادئاً

فقال حسن كأنه اقتنع بهذا السبب : لقد خشيت ان تكون مريضاً . ولنعد الى مسألة هند . انى عازم على مفاتحتها بغرضى اليوم ...

فصاح حسن مبهوتاً : أتخاطبها هي !

قال : ولم لا ؟ . ان أباها ترك لها الخيار في انتقاء الزوج وهذا لا يمنع التحدث معها بهذا الشأن

قال : افعل ما يروق لك . (وسكت)...

مضى رضوان الى الغرفة المعدة له فصادف في طريقه هنداً تمر من قاعتها الى دورة المياه فوقف ليوسع المكان لها فابتسمت له ابتسامة رقيقة قائلة : شكراً لك يا أخي . . !

فرنا اليها بلحظ فاتر كسير وقلبه يغلي بعاطفته الشديدة كأن به اتون يصهر دماءه وما لبث أن ولج غرفته مسرعاً وهو يقول :

«يا أخي ! لقد صدقت وما أنا إلا أخوها . . نعم أنا أخوها وحسب . . رفيق صباها الذي يجب ان تكون عنده في منزلة الشقيقة العزيزة فقط . . .

وما أصنع بقلبي . . بل بغرامي الهائج ! . أهل بعد ان تماديت مع عاطفتي انكص على عقبي في منتصف الطريق . . وهل أترك كل أحلامي وآمالي . أن الحب لم يكد يظلل قلبي فهل من العدل أن أصدم صدمة تهتز لها أركان فؤادي فاعود محطم الجدران بقلب مجروح كليم ؟»

كان رضوان يردد ذلك لنفسه وفؤاده يكاد يطير شعاعاً لعظم ما ألم به من حزن أسود وقد رأى في لحظة أن حصون

أحلامه وسعادته قد تقوضت فاصبح لا يقع نظره إلا على صرح خرب وطلال مهدمة لا يبصر فيما يحيط بها من ظلام موحش شعاعاً ضئيلا من نور الرجاء..

ولكن علام ذلك وهى لم تذكر رغبتها لأبيها الشيخ حتى الآن؟ وما يدريه أنه من وقع اختيارها عليه ..أهل لا ينتظر ليرى قرارها النهائى؟ ولو... قال ذلك لنفسه. نعم ولو كانت تريده زوجاً أهل تراه يدع أخاه حسن يبوء بالخيبة وهو يظن أن هنداً لو تزوجها (أعنى حسن) ستكون سبباً لصلاحه وتقويم اعوجاجه..أنه يفضل أن يضحى نفسه وهناءه فى سبيل أخيه. فاراد أن يصمم على ذلك ولكنه عاد وصاح لنفسه قائلا:

لا قدرة لى.. نعم لا أستطيع. انى لو لم أتزوج بها لانفطر فؤادى وانطفأ مصباح سعادتى.. ولكن.. مايلم بأخى؟ أن قلبي ليذوب أسا وتفجعاً عليه..لا أود ان أكون سبباً فى شقائه ولو كان تلفى فى سبيل سعادته وهنائه فانا ارحب بهذا الشقاء العاجل ولأكن اناله الفدى.. نعم هكذا يجب!

الفصل الخامس

دخلت هند إلى غرفة ابيها فى الصباح وهى تمشى على أطراف أصابعها غير انه شعر بها وقال:

هند ؟

قالت : نعم يا أبى . . كيف حالك اليوم ؟

قال : كما كنت امس . أشكر الله على كل حال

قالت : انى أراك اليوم أحسن يا أبى والنشاط ظاهر عليك . فهل نمت مستريحاً امس ؟

فهز رأسه مبتسما وهو يقول :

نعم يا بنيه . . لقد نمت كثيراً . . والآن ماذا فى رأيك عليه يا بنيه ؟

قالت على ماذا يا أبى ؟

قال : مسألة أمس ألم تفكرى قليلا فى مستقبلك فاطرقت برأسها ولم تجب

قال : ما بالك يا بنية . . لم لم تجيبى ؟

قالت : عفواً يا أبى :. .

قال : أهل لم تفكرى فى مستقبلك ؟

قالت: بلى فكرت

قال : وما نتيجة هذا التفكير؟

قالت : تبين لى انى كنت على خطأ فى ظنى أننى أهوى رضوانُ وأتمنى أن يكون زوجى

فصاح مبهوتاً : ألا تحبين رضوان !

قالت : أحبه بكل مافى نفسي من قوة . . ولكن ليس هذا الحب كما تظن فانا احبه حب شقيقة لاخيها العزيز البار. وقد دخلت الى صميم قلبى فلم أعثر على عاطفة عشق نحوه !

قال : يا لله ! . لقد فهمت ما تعنين يا بنية . فيا رحمتاه لك يا رضوان . . .

قالت : انى أرثى له . . ويكاد قلبي يتمزق إرباً كلما تصورت مركزه متى وقف على الحقيقة . وارحمتاه لك يا أخى . . ولكن ليس الذنب ذنبى وأنا بريئة يا أبتاه

قال : نعم يا بنيه . . ولكن ما تكون لهفته تلقاء هذا

النبأ . . ومن تظنين يصلح لك غيره ؟ . .

قالت : أظن ابن عمى حسن يصلح لان يكون زوجاً لى !.

فنهض نصف نهوض فى فراشه مغالباً ضعفه واخذ ينظر اليها مبهوتاً ذاهلا ثم قال

حسن ! . وتقولين حسن !

قالت : نعم يا أبى لقد رأيته امس فوجدته غير حسن الذي أعهده . ولقد أثر على حزنه وانقباضه وظهرت لى تعاسته مرسومة على صحيفة وجهه . فقليل من الامل والسعادة تعيده الى سيرة حسنة نفتخر بها . . ومن أحق منى فى تقويم معوجه

قال : كل ذلك معقول يا بنيتى . وهل تشعرين بأى عاطفة نحوه . . هل تحبينه ؟

قالت : انى أرثى له واشفق عليه وطريق الشفقة هو طريق الحب أيضاً . . وانى أشعر من نفسى بانى قادرة على احياء ابن عمى والنهوض به

فلم يزد والدها على قوله (لتكن ارادة الله . . انى أوافق

يا بنيه على ما تريدين ولو أن قلبى قد سحق لاجل عزيزى رضوان) . .

وانتهى الخبر فى ذلك اليوم الى حسن ورضوان فتلقاه الاول بفرح شديد أما الثانى فابيض وجهه حتى حاكى لون الشمع وشعر فى هذه اللحظة أن الارض تميد به وما لبث ان سمع صرخته تدوى فى أذنه كأنها آتية من مكان بعيد وسقط على الارض ولم يعد يدرى ما تم بعد ذلك . . .

*
* *

بعد بضعة أيام من ذلك اليوم المشؤوم مات والد هند وتزوجت هى بحسن دون عمل مهرجان بسبب الحزن على المائت وكانت اقامة العروسين بمصر إذ لم يستطيعا أن يجاورا رضوانا وجرح فؤاده لا يزال داميا . أما هو فقد أصابه الهم والضيق ولبث مدة يبكى حتى نضب دمعه ويشكو زمانه حتى خوت جعبة شكايته وما لبث ان أخذ يشعر بالسلوى وراحة البال وأخذ ضميره يهدأ وعاد الى حياته الطيبة الساكنة :

فاخذ يذهب للحقل كل يوم ويراقب الزراع كعادته السابقة وينبه لمواضع الخطأ ويعطى النصائح ويشترك فى العمل معهم حتى ألهته هـذه المشاغل عن ضيقته وأفرجت كربه فعاد سيرته الاولى ولو أنه أغلق فؤاده على غرام قاتل وضرام مستمر

وهكذا تقلبت الايام واحداً بعد واحد وهو منهمك فى عمله طول النهار ومتى عاد الى مأواه ليلا واختلى فى غرفته أخذت تعود اليه ذكرى الماضى فيظل محدقاً وهو منقل الصدر حزيناً حتى يروح فى نسيان طويل ويذهب خياله إلى أحلام لاحدود لهـا ولا نهاية ولا يلبث أن يفيق من زهوله فيقوم الى فراشه فيرقد متهالكا وهو يقول لنفسه (من كان يظن ! .)

*
* *

ورد لرضوان فى صباح يوم من الايام خطاب من أخيه يخبره فيه بان هنداً ولدت مولوداً سعيداً سمياه (رضوانا) إذ أنها لم تشأ أن تسميه غير هذا الاسم

ففرح رضوان فرحاً شديداً وكتب لأخيه خطاباً يشكره ويشكر ابنة خاله ويتمنى أن يكون له الضلع الأكبر في تربية (سميه) وتهذيبه وطلب اليهما أن يحضرا الى القرية بعد تمالك هند لصحتها بعد الولادة. وجلس بعد ذلك في نافذة غرفته وهو منعم القلب فرحاً وأخذ يقول لنفسه :

سأراها مع مولودها السعيد : . . بعد مضي عام على فراقنا ! . وما سيكون مركزي ؟ . أني لا اشعر بذلك القاهر الشديد يقبض على فؤادي بيد صلبة كما كان حاله معي قبل الآن واظن تلك العاطفة الملعونة قد ماتت فلا بعث لها . نعم لا بعث لها وقد زال الخطر عني . لقد قضى ذلك العاشق السابق وتردى في حفرته مع عاطفته الملتهبة . وما انا الآن الا أخوها . . أخوها نعم كما ترغب وتريد . . وحسبي أن أكون في هذه المنزلة عندها . . .

لقد أرادت أن يسمي مولودها (رضواناً) ! . فهل ظلت تفكر في رضوانها السابق . . رضوانها التي أماتته وسحقت قلبه ! . ولكن ماذنبها وما لنا نعود لهذه الذكرى

لقد انقضى ذلك العهد واندرست معالمه فلا يجدر بنا أن نحييه من العدم !..

* * *

مضى يوم الأربعين على ولادة هند فأخذ رضوان يعد العدات لاستقبالهما مع شبابهما الصغير والدنيا لا تسعه لفرحه وشدة حبوره . ولم يمض أكثر من ثلاثة أيام إلا وكان يجلس فى صالة الدوّار يحمل سميه فى حجره مدللا إياه مناغياً وهو يأتى بحركات مع صديقه الصغير تضحك الثكلى وهند تجلس على مقربة منه والدمع يكاد ينفر من مقلتيها حنانًا واشفاقًا وزوجها حسن ممدداً على مقعد طويل يقرأ فى رواية

وظلوا كذلك لا يكدر السكون المحيط بهم غير صوت رضوان وهو دائب على مناغاة طفله المدلل وصديقه الجديد . فيارحمتاه لهذا البطل ! . لقد أرخى سدول النسيان على غرامه السابق ولم يعد يفكر الا فى هناء الزوجين وهنائه أيضاً بتقبيل طفلهما وتدليله كأنه نسى ان هذا الهناء لم

يشتر إلا بشقائه .. كان ثمناً له سحق فؤاده وجرح قلبه ! ..

ظل القوم هكذا فرحهم وسرورهم لا يتطلب بعدهما من مزيد ورضوان يجد اللذة والارتياح فى الجلوس بالطفل معظم ساعات النهار وقد شغلهُ هذا الشاغل الجديد عن عادته فيما يختص بالغيظ والمزارعين . وكان يقول فى نفسه (لا يضير المزرعة وفلاحيها ان اتركهم بضعة أيام لأتفرغ لولدى الحبيب وإلتمتع به قليلا بعد طول . . . ولكن مالى وذكر الماضي .) وهذه عادة فيه بعد حادثة زواج هند متى أتى على ذكر ماضيه قاطع نفسه وغيّر مجرى تخيله !

وكان أخوه حسن على صفاء مع هند طول هذا العام وقد تغير سيره تغيراً مدهشاً حتى لقد اعتقدت هند انه طلّق سيرته الاولى . وكانت تبسم لهذا الظن وتغتبط قائلة فى سرها (هداه الله . هذا ما كنت أرجو وأتمنى)

ولكن هل ظنها فى محله . وهل أراد الله أن تكون هى السبب فى احياء حسن واعادته رجلا ؟ ذلك ما سيظهره لنا المستقبل ولننتظر ...

مر الشهر تلو الشهر ولم يحدث جديد حتى بلغ رضوان الصغير عاماً كاملا وصار يدب على الارض بقدمه الصغيرة البلورية اما بمفرده أو قابضاً على ذيل قفطان عمه وهو يبذل غاية جهده فى اضحاك الطفل بأن يقفز قفزاً متواصلا أو مقلداً همهمة الجواد أو ماشياً على أربعة أو مصفراً بفمه مقلداً صفير القاطرة أو نابحاً نباح الكلاب ! .

وقد قر الرأى فى هذين اليومين على اجراء الختان للطفل وعمل مهرجان كبير لاجل ذلك

فدعى حسن أصدقاءه . بهجت ورضا وخليل . وفوزى نجل العمدة وكثيرين من أقربائهم وجيرانهم وفى مساء اليوم السابق ليوم الختان كان الدوار مع صيوان كبير يضم أصدقاء البيت وفلاحيهم مع جمع كبير من جيرانهم العمد والاعيان يشنف اسماعهم صوت الشيخ النابغة حسن جابر الازهرى وقد جلس أصدقاء حسن القدماء فى غرفة كبيرة من غرف الدوار وقدمت اليهم الخمور كطلبهم مع مالذ وطاب من المأكولات الشهية

تصادف ان مر رضوان فرأى أخاه وسط اخوانه وقد حمي بينهم وطيس الجدال فانضم اليهم ليرى ما الخبر وما سبب هذا الجدال الشديد فسمع خليلا يقول انى عازم على الزواج قريباً من فتاة غنية على كل حال فوفر نصيحتك يا سى رضا

فقال حسن : نعم ما عزمت عليه

وقال بهجت : أحسنت فان زواج المرء تكملة لدينه فأخذ رضا يضحك ساخراً وهو يقول : ما أسخف عقلك انك تلقى بنفسك فى يم مزبدة أمواجه فلا تستطيع منها خلاصاً . وهل أيامنا هذه أيام زواج...

قال فوزى : صدق والله هذا السكير . الا بالطبع لو كان صديقنا خليل على ثقة من انه يرى الهناء فى عيشته الزوجية

قال بهجت : ولم لا يجد ذلك الهناء المنشود بين جدران بيته الجديد وقد ملأته رفيقته بهجة وسروراً ألا ترى كيف تغير حال حسن وتبدل ! أو هل تزعم ان عيشته بيننا نحن أصدقائه الاوفياء تكون أحلى الى قلبه من عيشة هادئة مع

زوجة معظمة محبوبة يحن اليها ويبثها أشجانه وأفراحه فتشاركه في الاولى وتقاسمه الثانية . . . أظنك يا فوزى افندي تريد المغالطة ليس إلا أو انك تزج بنفسك متطوعاً في بحار الضلال سر مناد لهذا المفتود الذى لا يعرف من دنياه غير قناني الخمر وسوائد الطعام . . .

قال رضا متلمظا : بس غلبة . . ولم لا تتزوج أنت مادام في الزواج حسنات اكثر عدداً مما شربت أنا الليلة من أقداح الخمر يا غلباوى !

فانفجر الاصحاب يضحكون وقد سر رضوان من خفة روح هذا السكير رضا وأراد أن يستفزه حتى يكثر من نكاته فاسرع الى خارج الغرفة وما لبث ان عاد ومعه غباشى خولى المزرعة وهو مشهور بين أهل القرية بنكاته اللذيذة وما رآه حسن حتى عرف قصد رضوان فرحب به قائلا :

أهلا عم غباشى . رضا افندى عاوزك

قال : السلام عليكم جبله

قال رضا : آلو بنسوار عم . . . اسمك اه

قال : عملك غباشي خفاجه م الكوم الاخضر و داوجت نزيل مليج...

قال رضا : هيه . حيلك هيا سوره يا راجل . . يا عم .. اسمك ايه ؟

قال : غباشي جلت لك هو آه . .

قال رضا : بردون يا عم . . اسمك إيه ؟

قال : يا خي دانته تاكل حلاوه على كده . . يا راجل جلت لك غباشي خفاجه م الكوم الاخضر و . . .

قال : بس . بس عرفت . شوف يا عم . . . آه غباشي انا كنت اكلم هؤلاء الاصحاب بخصوص الزواج ومشاره فما قولك أنت ؟..

قال : والله يا أفندى أنا مانا فاهم بتجول إيه . كلمنى بالعربى بلاش النحو ده

فضحك القوم وأخذ رضا يقهقه بصوت مزعج وهو يتمايل على كرسيه فاغتاظ الشيخ غباشى وأخذ يقول : الله إيه العبارة يا أفندية هو أنا مضحكة يا أخي يادى النبلة يادى

السنة السوخة المجندلة هوا بجت الايام دى الصغار تضحك على المشايخ هى دى دجن ولا مكنسة ...

فازداد ضحك القوم وأكثر رضا من التصفيق طرباً

ثم قال: لا دى مش مكنسة دى مهفة

قال غباشى : والله عال أهو لسانه طول زيادة

قال رضا : ولسه يا عم . انته وقعت والا الهوى رماك

قال : والله ما رمى غيرك . ياخى دستوركم أحسن الوله دخل فى الغميج

قال رضا : وانت دخلت علينا كالعمل الردى...

وكان الخولى غباشى حتى هذه اللحظة لم يشأ ان يجارى رضا فى مضماره غير أن تحرشه به زاده جرأة ورفع ماشعر به من الكلفة فقابله بالمثل

وأخذوا جميعاً يتبادلون النكات وكانت الغلبة للفلاح الساذج الذي صار لسانه يتدفق بنكات لا تكلف فيها تخرج من فمه فيضج لها القوم تصفيقاً وضحكا حتى ظهرت تباشير الصباح ونال التعب من الجميع فقاموا الى فراشهم

متهالكين وخيم السكون على الدوار وما يجاوره وما عدت ذكاء في الافق حتى قام القوم بغير موقظ يسعون الى بلادهم وقراهم الا اصحابنا الصفا فاحسن فقد لبثوا يغطون في نومهم حتى الظهر

وقد حضر رضوان ختان الطفل ونفسه تكاد تطير شعاعاً لبكائه وسناداته اياه صارخاً (بابا لوان) حتى لم يتمالك ان بكى لبكاء الطفل . . وهذه ثالث مرة يبكي في سبيل هند . .

الفصل السادس

أتى على زواج هند أكثر من عامين كبر فيهما رضوان الصغير فى ظل عمه وتحت رعايته وكانت أحوال حسن تتغير وهند تلاحظ ذلك وهى لا تصدق حتى أعياها الامر وعزمت على ان تفاتحه فى أمره متى خلت اليه

جلست اليه مرة فوجدته كئيباً حزيناً على غير عادته فى مليح (لانهم كانوا قد انتقلوا الى مصر في الشتاء)

فقالت : له ما بالك يا حسن ؟

قال : لا شيء . . وهل أهمك حتى تسألين عن حالى؟

قالت تهمنى ! . ماهذا القول ! .

قال : انى أقول الحق... أنك لم تصغى الى مشورتى ولم تقلعى عن عادتك التى ستجرنا الى الخراب العاجل . .

قالت: خراب ! . أهل كنت تعنى قولك الذى ذكرته لى من مدة . . أحقاً كنت جاداً فى كلامك عن انفاق مالى فى سبيل الخير ! أهل نسيت أن هذا المال لم يتركه لى والدى

ويخصنى به الا لانفقه فى هـذا السبيل ؛ ومع ذلك فانى أحسب نفسى مقصرة جداً فى انفاق هذا القدر اليسير كل شهر وكان يجب أن أسير فى هذه الطريق بخطى واسعة كرغبة المرحوم والدى..

قال :مقصرة ! مقصرة !

قالت : نعم مقصرة . .وما يضيرك على كل حال.. أهل أطلب منك شيئاً . انى أتصدق من مالى الخاص

قال : أو تجسرين على هذ القول . أهل ظننت أن لك مالا ؟ . .

إذاً فسأحبس المال عنك وسأرى ان كنت تعرفين أن لك دخلا يخصك

قالت :انى لأرجو الا تصل النتيجة الى ذلك فانت أعلم أن مالى بأجمعه وما يرسله الىّ أخى رضوان هو وديعة لى عندك فهل تنكر هذا الحق ؟

قال : لا مال لك عندى !.

قالت :أتقول حقاً ! . وا أسفاه . لقد كنت أظن انى

أستطيع أن أقتلع البذور السيئة من نفسك وكنت أنتظر النتيجة خافقة القلب . حتى اذا ما ظننت أن غرسى أثمر أطيب الثمر وان يدى قبضت على سوق السوء النابتة فى طباعك لتقتلعها من جذورها فاذا بتلك السوق صلبة العود متشعبة الجذور لا تقوى يدى الضعيفة على اقتلاعها واذا بتلك الثمار ساقطة الى الارض مداسة بالارجل . .

صاح : حذار يا هند

قالت : مم أحذر . لقد طفح الكيل ولم أعد أستطيع صبراً على ذلك . فهل تظن انى أظل على ما أنا عليه من الاستكانة حذار أنت فانى لست ممن يسكت على الاهانة كما وانى لا أتغاضى عن أقل هفوة تأتيها

قال : وأنا أقول لك الحق انى صنعت ذرعاً من معاشرتى لك على هذه الحال

قالت : صنعت ذرعاً من معاشرتك لى على هذه الحال ؟ حقاً هذا غريب لم أسمع بمثله قبل . . لم يمض على اقترانا اكثر من عامين كنت أحسب نفسى فيهما قد وجدتك

فعلا وصيرتك رجلا . فاذا بك تكن فى كرهها أشد مما يكنه المشنوق الى جلاده وذلك لانى أبذل ما يفيض عن حاجتى فى مساعدة البؤساء والمعوزين . ثم قد أصبحت فى نظرك مجرمة لا تطيق أن تعاشرني وتجلس معى تحت سقف واحد لهذا السبب فقط وأنت المسلم المتعلم الذى يعرف معنى الاحسان ولا يتجرأ على نكران محاسنه !. فقل لى بالله ما الذى طرأ عليك حتى تغير حالك ومن ذا الذى نجح فى اعادتك سيرتك الاولى ؟ .

قال : انى حر أسير فى الطريق التى تحلو لى

قالت غاضبة . اذاً لماذا لا تدعنى حرة ؟.

قال : أدعك حرة : . حقاً لم يبق إلا أن تطلبين هذا الطلب بجرأة ووقاحة !..

قالت : أيحرم الرجل على امرأته أن تسير فى طريق الخير والصلاح !. حقاً لهذا أعجب العجاب ! اعلم يا صديق أنك على ضلال أو انك تحاول السير فى طريق وعرة سوف تنتهى بك الى نهاية مظلمة خطرة . واذا . . .

قال مقاطعا : كفى كفى أيتها السيدة

قالت : كلا فدعنى أظهر لك حقيقة حالك

قال : لا أسمح لك

قالت : اذاً على الاقل دعنى أذكرك بقولك لى « لقد عقد هذا الزواج بين قلبينا عقداً لا يحله الا ريب المنون وأنا أشكر لك هذه اليد لانى اعلم حق العلم أنك فعلت شيئاً من التضحية الشخصية لتكونى زوجتى وذلك لأنك حسبت ان فى مقدرتك تقويم اعوجاجى .. وانا إزاء ذلك أعدك وعداً صادقاً لا نكوث فيه بأن أكون كما ترتدين وأسير طائعاً فى السبيل الذى ترسمينه » أتجرأ على نسيان ذلك ؟ . نعم وا أسفاه انى أراك امامى غير ذلك الزوج الذى كنت أراه بالامس !..

قال : كفى يا سيدتى

فصاحت به : سيدتك : . الا زلت تذكر هذه الكلمة.. انى أصبحت عندك أذل من أحقر خادم فالاولى بك ألا

تدعونى كذلك مرة أخرى . . ليت شعرى ماذا يسوءك من احسانى الى الفقراء ومساعدة الجمعيات الخيرية مادمت أجد لذة فى اتيان هذا العمل البار . . ألا فلتعلم انك لو صممت على أن تقف فى وجهى سداً منيعاً لا يكونن على وجه الارض أعظم منى لوعة ولا أشقى . . فمن للتعساء الاشقياء الذين أقسمت على أن أمدهم بما تركه لى والدى برسمهم ؟ أبدلا من أن تكون عونى ونصيرى حتى أفتخر بك كزوج صالح جواد تريد أن تقف حجر عثرة فى طريقى ؟

سلام على الدنيا اذا لم يكن بها

كريم يؤاسى أو طبيب يطبب

قال : حديث خرافة . . نتصدق ونحن أولى بالصدقة . . انك لا تعرفين شيئاً عن مركزى المالى . .

قالت : مركزك المالى ! . وهل أخذي تقود من ايرادى الخاص يؤثر فى مركزك المالى ؟

قال : انك بلهاء . . لنا عودة لمثل هذا الكلام وستعرفين انى على حق . . ومضى !

فصاحت منغضبة : واحرباه انه عاد لعادته السيئة لقد قامر وخسر . . اللهم لطفك بنا...

اختلت هند فى مكانها وظلت تذرف من دموعها ماشاء لها البكاء حتى نضب معينها وألقت برأسها على وسادة مقعدها وانها لكذلك اذ سمعت صوت خالها الحاج مصطفى يسأل الخادم عنها

فاصلحت شعرها ومسحت دموعها وخرجت اليه وما ان وقع نظره عليها حتى عرف انها كانت تبكى

فقال لها : لعلك سهرت بالامس كثيراً يا بنيه ؟

قالت : بلى ياأبتاه (كانت تدعوه كذلك بعد موت أبيها)

قال : وبكيت أيضاً . . فأريد أن أعرف السبب

قالت : اجلس قليلا أحدثك حديثى

قال: أود أن أعرف أولا . هل كدرك ذلك الزوج الطائش أو آلم عواطفك ؟

قالت: لقد كان لى الآن معه موقف غريب مدهش

قال : هذا ما ظننت . وما الذى فعله اليوم معك ؟

قالت : انه يلومني بعض اللوم ..

قال : أراك غير صريحة معي يا هند . وأنا أعلم عن زوجك أكثر مما تعلمين وقد كنت أنتظر هذه النتيجة وأراقبها بخوف ووجل ويحزنني أن أقول ان هذا الرجل الذي يدعى زوجك قد عاد سيرته الاولى بتأثير الوسط الذي يعيش فيه ولو كنت أعلم .. نعم لو كنت أعلم لقطعت يدي قبل أن أوقع بصفتي وكيلك على ورقة ذلك القران المشؤوم

قالت : مشؤوم ! . انك تؤلمني يا أبتاه

قال : عفوك يا بنيه فان الذكرى تجعلني أخرج عن حدودي

ولكن ما العمل وقد لا يستطيع المرء ان ينسى

قالت : ألا تجدني صابرة لا أشكو . . أهل تظنني منعمة في عيشتي هذه . لقد وددت أن أصلح حال ابن عمي وأجد له مستقبلا زاهراً فاذا بكل هذه التخيلات الجميلة والسعادة التي كنت أرجوها قد ذهبت كبرق خلب . وما ذلك الامل الذي كان يمنيني ويقودني الى طريق الانتظار

يلا ملل إلا صورة مموهة وخداع غرار !

قال : بلى يا بنية انى أعلم حق العلم بأن نفسك معذبة وا لهف قلبي عليك .. كيف لم يحدثني ضميرى بما تعانيه الآن من تحمل هـذا الظلم البين من زوجك الحديث الطائش ونحن قوم لم نخفض جباهنا امام مخلوق قط .. ليت شعرى كيف جاز لهذا الطاغية أن يحاول منعك عن الاخذ بناصر التعساء الضعفاء ويتخذ هذا السبب ذريعة لمخاصمتك ولومك! ألا يعلم ان الله لم يمنح الانسان قلباً ذا شعور إلا ليعطف على أخيه الانسان وهو لا يهب الثروة بعض الناس إلا لينفعوا بها ويأتوا البر والاحسان؟.

قالت : ما أشد ما تكابده لاجلى يا أبى . . . ولكن قل لى أنقمتك على زوجى لا تزول . . وهل ترجو أن يصلح حاله ؟

قال : انى ناقم عليه نعم . . ولا يسعنى الا أن أبغضه لان المرء الذى يحاول قطع اليد التى تمتد الى معاونته واصلاح حاله لا يجب ان يعطف عليه . وزوجك قد عاد

الى عادته الأولى وحنث بيمينه

أما قولك وهل يصلح حاله ؛ فقد كنت أظن أنك هى من تستطيع خلق حسن خلقاً جديداً وقد كنت أراقبك سائرة فى عملك بنجاح لولا أن طرأ ما غيّر اعتقادى ولم ألبث ان رأيت القدم زلت ولا حيلة لزوجك فى الاستمساك فهو ساقط — ولا يسعنى نكران ذلك — أما أنت وولدك ففى ذمة الله..

فاكفهر وجه هند وظلت صامتة صمتاً هائلا وما لبثت أن وضعت رأسها بين يديها واضطربت اضطراباً عنيفاً ثم رفعته ببطء وألقت نظراً شارداً نحو خالها كأنها صحت من حلم عميق وما هى الا برهة قليلة حتى أخضلت مسارب عينيها وتسرد دمعها فبكت ما شاءت وخالها ساكن القلب ينظر اليها بشفقة وحنان وما لبث أن رآها كفكفت دموعها فعطف عليها وهو طائر الفؤاد لوعة بعد هذا السكون العجيب وقال : لقد أنقذك هذا البكاء يا بنيه . . ولم أشأ أن اعترضك أثناء هياج عاطفتك

قالت : شكراً لك يا أبتاه .. ستجدني قوية ثابتة . وكما انني كنت صادقة العزم في تقويم معوج زوجي وقد أبى الله أن أنجح في مقصدي الشريف . وما أنا الآن الا زوجة تعسة بذلت نفسي في سبيل زوجي . ذلك الرجل الذي شرب أول كأس الحياة المرير . فهو لا ينفك يشرب من ذلك المنهل الوعر حتى يجرفه السيل الى هوة عميقة لا ينجو منها. يجب عليّ أن أكون صادقة العزم أيضاً في مقاومة هذا الرجل الآن واحترامه فقط كوالد ولدي . . فاستودعك الله الى يوم غد لاني في حاجة الى الهدو

*
* *

مضت هند الى خدرها ولبث خالها في مكانه (وهو ايوان المنزل) فرأى حسناً داخلا يتبعه عدد من أصدقائه فاشفق ان يتقابل معهم وجها لوجه وهو يعقت مثل هذه المقابلة مع زمرة يعدها من زمر الشيطان فانسل دون أن يرونه الى غرفته

وبعد لحظة دخل الاصدقاء وهم يتمايلون تيهاً وصوتهم

له ضجيج مزعج وبعد أن تهالكوا جميعاً على المقاعد قال حسن :

لقد عنّ لى أن آخذ رأيكم فى مسألة أيها الاخوان فأرجو الاصغاء لى

قال رضا : خيراً ان شاء الله

قال : انكم تعلمون جميعاً بأن زوجتى غنية وقد أودعت ما عندها من نقود فى خزينتي الخاصة وكذا ما يأتيها من أملاكها ومزارعها يوضع عندى

قال رضا : هنيئاً لك فأنت قادر على التصرف فى هذه الاموال دون أن تدرى زوجتك

قال: هذا ما حصل . غير انى ألوم نفسى أشد اللوم لهذا التصرف المقوت اذ شعرت هى أخيراً بان يدى أخذت تعبث بنقودها فاحتاطت للأمر ومنعتها عنى.. فأنا الآن فى أزمة شديدة وقد كان لى مع زوجتى اليوم موقف عنيف خشن . . وأظن انى من اليوم على استعداد انضال هائل و جدال دائم

قال خليل : وما يمنعك من تحاشى وقوفك معها موقف المنازع المناضل

قال : انى فى أزمة مالية قلت لكم . . وهى تأبى أن اسمفنى بالنقود وقد أخذتنى على غرة دون أن أحتاط . . ويغلب على ظنى ان خالها الحاج مصطفى هو الذى أثارها علىّ ورسم لها خطة المقاومة . . ولقد جعلها بخبثه ودهائه تعتقد أن الهناء لا يتم إلا اذا حاول الانسان بكل الوسائل أن يدخله الى قلوب البؤساء والتعساء !.

قال بهجت : وهل تعد هذا العمل من زوجتك الفاضلة نزعة سيئة تود الا تنزع اليها ؟

قال : هذا ما أود : . فانها تصرف أموالا فى هذا السبيل لو أبقتها لى لما كنت مديناً لأحد ولوفرت علىّ قطاطة ذلك المرابى الملعون الذى يضايقنى فى كثير من الاحيان

قال : بئست هذه الفكرة . . كان الواجب عليك ياصديقى أن تجعل ميزانية لنفسك حتى لا تضطر فى يوم من الايام أن تمد يدك لزوجتك كما يمد الشحاذ يده للسؤال . . فالاموال

لها وهي حرة تصرفها في الوجوه التي ترغب أن تصرفها فيها . . وهل تريد أن تسلب منها نقود الفقراء التعساء لتبذرها على مائدتك الخضراء ؟ . أي الطريقين أحلى وأبر . . اتق الله وأذكر ان ما تأتيه زوجتك من عمل البر والاحسان يجعلها جديرة بأن تكون محبوبة محترمة مثلك وهي قدوة النساء والمثال الصالح

قال : أشكرك يا بهجت . انما لا يسعني أن انقاد لرأيك مع علمي بأنه صائب : وما دمت في احتياج لنقود وهي تأبى هذه النقود عليّ فأنا دائم الجدال معها . ولا قدرة لي على تحدي هذه الطريق التي يحلو لي أن أسير فيها بخطى واسعة . . ولقد ظننت أن حالي يصلح فاذا العادة متمكنة مني وسأظل أهوى حتى أصل الى القرار ! . .

قال : وارحمتاه لك . . انك تظن أن الاصلاح متعسر وفاتك انه في يدك ولا يحتاج إلا الى ارادة قليلة

قال : ان قوة الارادة أصل الثبات . وأنا أعترف ان الثبات يبعد عني بمراحل ويدي لا تقبض على ذرة منه

فدعني أسير الى حتفي فأنا ضحية . . نعم ضحية العادة والتقليد الاعمى وقد أماتت عاداتي السيئة كل عاطفة شريفة في نفسي الا — انفتي وشرفي طبعاً — وأخشي وأنا مفعم القلب وجلا أن تمتد يدي بسوء الى شرفي فتأتي عليه أيضاً . . وهنا يكون موتي وتأتي نهايتي لا محالة

ولبث الكل ازاء هذا القول الصريح من حسن لا يسمع غير صوت تنفسهم السريع ونفوسهم هائجة ثائرة كأنهم يعلمون أن آخرة حسن التي تنبأ بها هي لاشك نهايتهم... فيارحمتاه لهؤلاء الشبان الاقوياء . . ألا لو طلقوا سيرتهم وحسنت أحوالهم لكانوا قوة لوطنهم يفتدونه بالمهج الغالية . .

وأخذ ينفرط عقدهم واحداً بعد واحد حتى انصرفوا جميعاً دون أن يدلي أحدهم برأي لحسن وقام الاخير مترنحاً الى غرفته وهو يقول ما النهاية . . ومتى تأتي ! . .

الفصل السابع

حدثت هذه الحوادث السابقة وصاحبنا رضوان لا يعلم عنها شيئاً ولطالما عزم الحاج مصطفى على اخباره عن سيرة أخيه التي أصبحت أسوأ مما كان قبل زواجه ولكنه أمسك عن ذكر ذلك خوفاً من تكدير صفاء عيشه الساذج وسط قومه (فلاحيه السذج) وخشي ان ذلك يؤلم هند أيضاً وهي ربما كانت تود حفظ هذه المسألة كسر يجب بالاخص أن يجهله رضوان . وهكذا بقي رضوان عاكفاً على عمله وقد تفرغ له لا يلهيه خيال أو حلم مما كان يصوره لنفسه قبل نكبة فؤاده ويظل هكذا يشتغل لبث النشاط بين عماله وهو لا يأنف العمل مثلهم حتى يعتريه التعب فيستريح قليلا وما هي إلا بضع دقائق حتى يستأنف مع هؤلاء الزراع ما كانوا عليه قبل القيلولة حتى ينصرف النهار فينتهي عملهم الشاق ولا يلبث أن يعلو صوت غنائهم عند مسيرهم الى دورهم وهي عادة لازمة كأنهم يودعون مشقة

العمل طول اليوم ويستقبلون ليلهم فرحين مستبشرين . وما هي الا جلسة في قصور دورهم يتناولون فيها طعام المساء حتى يراهم اما جالسين امام اكواخهم أو فوق اسطحتهم وهم كأهنأ ما يكون وكأنهم ليسوا من كانوا يتصببون عرقاً تحت أشعة القرص المحرقة يشوى وجوههم وأرجلهم العارية لظى القيظ القاسى ! . . أما رضوان فكان أول عمل يفعله عند وصوله الدوار أن يزيل عن جسمه ما علق به من غبار العمل ومن ثم يجلس الى عمته العجوز يتحادث معها قليلا حتى يأتى فى طلبه الخادم لمقابلة صديقه منصور

كان هم منصور أن يقضى سهرته مع رضوان كل ليلة وقد أنست نفسه اليه كما أنست نفس رضوان به حتى لم يكن يمضى عليهما مساء دون أن يجلس الواحد الى الآخر يتجاذبان أطراف الحديث والليل ملقياً سدوله مرفرفاً على الوجود بجناحيه والطبيعة حولهما صامتة هادئة . وكم مرت عليهما الليالى هادئة وهما فى خلوة يشاهدان مناظر الريف الفخمة تطل عليهما أو يطلان عليها من خلال نافذة القاعة الكبرى

ففى ذات ليلة أتى منصور مبكراً على غير عادته وجلس ينتظر رضوان حتى اطل عليه الاخير وهو مولياً ظهره نحو الباب وفى يده رسالة يقرأها على ضوء القمر . . ولم يشعر منصور بدخول رضوان صديقه حتى حاول أن يخفى الورقة التى يحملها فى يده غير ان رضوان كان قد رآها فسأله قائلا :

مساء الخير ما لى أراك مهتما باخفاء هذه الورقة ؟

أجاب : لا شىء . . انها ورقة حساب

قال : وهل تحوي من الاسرار مايجعلك تأبى أن يرمقها نظرى ولو برهة ؟

قال : تأكد ان ليس فيها ما يهم

قال : وددت أن أصدقك . . وأنا كاره أن أهجم منك على سر ربما كنت تؤثر الابقاء عليه فى صدرك

قال : ألا تصدقنى !.

قال : قلت وددت أن أصدقك . . ولكن وجهك

ينم عن شيء ترغب أن تخفيه عني . ولا يسعني أن أغتصب منك أسرارك اغتصاباً . .

قال : وهل بيننا أسرار ؟

قال : هذا ما كنت اعتقد أما الآن فلا .

قال : اذاً خذ وعليك تبعة عملك

قال : وهل ترى في هذه الورقة ما لا أحب ؟

أجاب : نعم

قال : اذاً لا أريد أن أتلوها ويمكنك أن تلطف الخبر

قال : بل خذ واقرأ . . انها لا تحتوي إلا على بضع سطور

قال : تكفي هذه الاسطر القليلة لشقاء انسان لو كانت عن خبر سيء فلا قدرة لي على تلقي الصدمة وقلبي يحدثني بما لا يسر . فاخبرني بما تعرف . . ألا قل وأسرع بربك يامنصور

قال : الامر لله فاسمع

ولدي منصور

سلاماً وتحية وبعد فقد حدث ما كنت أتوقع وغلب حسن على أمره وهو سائر الى حتفه دون أن يبالي فلاحول

ولا . لقد كانت جهودها عبثاً وظنها الحسن قد اوردها موارد التلف فهي أشقى بنات جنسها اذ فعلت فعل الكرام لتقويم معوج زوجها وظنت انها فازت في أبان هذين الحولين فاذا بصروح آمالها متقوضة وخيوط رجائها متقطعة . وقد عرفت ان أخفف عنها . وهي الآن صابرة ثابتة تقاوم حتى النهاية . لطف وقع الخبر على عزيزنا رضوان كان الله في عونه ودعائي معه الى ما شاء الله والدك

تحريراً في. مصطفى

. فلبث رضوان هادئاً بعد سماع هذه الاسطر وقد رسم الأسى على جبينه خطوطا من شجن وظل ينظر الى منصور وقد اختفت عبراته في صدره ثم أطرق برأسه طويلا ولما رفعها كانت عبرة تترقرق في عينه (وهذه رابع مرة يبكي في سبيل هند) وصار يجاهد في التماسك قليلا حتى هدأ ثائره وتكلم . وكان صوته متغيراً له رنة الأسي والحزن العميق . .

قال : وارحمتاه لهند . . والهف قلبي على حسن . .

من لي بأن أكون له الفدى . . أعاد حقاً الى سابق عهده !. وهل اشتاقت نفسه ثانياً الى ما ظننت انه ملّ وسئم !. أما كفاه ما كرع من كأس المخزيات وما انغمس فيه من ينابيع الملاذ !. لقد ظننت أن قد نبع في قلبه كره لتلك الحال ونبت نفسه عن هذه السبيل فاذا به يتلهف على طرقها من جديد مع علمه بوعورتها !. فليكن وهو الجاني على نفسه.. أما عزيزتي هند . . . والهف قلبي عليها . . .

واستأذن من صديقه ودخل الى قاعة نومه وهو يمشي مترنحاً كأنه يسوق نفسه سوقاً أو يخطر فوق رملة ميثاء وجلس فوق مقعد بجوار النافذة والظلام مخيم حالك يطل منه بصيص النجوم كأنها عيون الجن والريح تئن فيبعث أنينها في اعماق فؤاده الحزين شعوراً محزناً

وحاول ان يصرف عن نفسه هواجسها ويجد لضميره راحة من بين السواد العظيم الذي يحيق به فلم يجد سبيلا الى ذلك وظل هكذا مفعم الفؤاد أسىً وهماً وذهبت تخيلاته

الى أحلام محزنة لا حدود لها وأطبق جفنيه يريد النوم حيث هو فاستعصى عليه وطال به الوقت حتى كاد الارق يجنه والافكار السوداء تخل جهاز عقله . وانه لكذلك إذ طرق سمعه صوت غناء صبى المزرعة يملأ الفضاء بصوته الشجي ليؤنسه فى وحدته مثل مرافقته ثور التابوت

فتذكر أيامه السالفة . . أيام كان يقضى معظم أوقاته تحت السماء الصافية يفكر فى هند ويبنى قصور هنائه وسعادته فى الهواء قبل ان تصيب فؤاده تلك الضربة الصائبة . . ولكن شتان بين الماضى والحاضر . ففى ذاك كان يطير مع هنائه المنتظر فوق أجنحة الامل معتقداً أن الفوز اللذيذ على قاب قوسين منه أو أدنى . .

أما الآن فهو يفكر فى هند أيضاً . . يفكر كيف خرجت من يده الى يد أخيه حسن . . كيف سحق فؤاده فى سبيلهما . . هما الاثنين . . وكيف تزوجت هند من حسن مؤملة أن يكون اصلاح حاله على يديها . وبالجملة فقد تبادرت اليه الافكار بسرعة وهو متوجع الفؤاد منكسر القلب .

وهل أوجع للفؤاد من هذه الذكرى؟

مال يده تعبث بشعره مرتجفة الاصابع . . وتحت جبينه المظلم يطل شيطان الحزن العميق ؟ . أكل هذا لاجل هند ! . . وارحمتاه لها . . نعم أن ضميره ليعبس وصدره يبكي ومقلتيه تتوقدان بجحيم الكمد لاجلها وفي سبيلها . . . وعيشته الهنية الهادئة ستكون منذ اليوم مرة المزاق وسيترك الغيط وولعه به وسط فلاحيه (الطيبين) ليأوى الى حجرته هاربا من طوائف الخلق ليختلي بطوائف خواطره المظلمة وأفكاره وضيوف الهم والحزن

«وكيف هي الآن؟ . وهل تشعر بقساوة الضربة التي تلقتها ؟ » قال هذا لنفسه وهو يرمي بنظره الى الفضاء العظيم والظلمة حالكة والهواء مختنق كأن الطبيعة تشاركه في حزنه وغمه . . .

وظل هكذا محزون القلب يكاد الدمع ينفر من مقلتيه وصمت الليل مروع وظلامه مع سواده القاتم أقل فحمة من أسارير وجهه الجهم المغيم وهمومه وكربه . .

كل ذلك لاجل هند ! . فما أسمى المكان الذي تشعله من قلبه الحنون ! وما أكبر قوة هذا الاخلاص وشدة هذا الحب ! . .

وأخيراً قام الى سريره وقد مضى الليل إلا قليله وحاول الهجوع فلم يغمض له جفن ولا اطمأن له جنب وما لبث ان سمع صوت غلام التابوت يتدرج فى العلو حتى أخذ يطن فى أذنه وله نغمة لذيذة ترنحت لها اعطافه فتاه عن وجوده وراح في نوم عميق

ولما أصبح الصباح قام من رقاده تعلو وجهه صفرة والحزن يملك عليه حواسه وقد صمم في نفسه على السفر الى مصر ليأخذ بيد هند فى نكبتها وليحاسب أخاه حساباً قاسياً وبلا رحمة

الفصل الثامن

بينما كان رضوان يفكر فى السفر الى مصر كان اخوه حسن يجلس الى زمرة من أصدقائه المعروفين لنا وقد نفث الشيطان فى صدورهم من روحه الخبيثة وجاش حب المعاصى فى أفئدتهم الدنيئة وهم لاهون فى ملاذهم ومسراتهم لا يردهم عن غيهم ناصح وقد سقطوا الى أسفل الدرجات دون أن تشعر نفوسهم بحقارة تجارتهم الخاسرة فمن خمر وفجور الى ميسر كلنحل كانوا انما من خمرة * الى ميسر منه الى فحشاء

وقد كان حسن بخير ما يقرب من عامين حتى اتصل به صديق جديد ما زال يزين له الشر ويحبب له القبيح حتى استطاع ان يثير الميل الكامن فيه الى الشهوات والملاذ فعاد سيرته الاولى بدرجة أشد وأفظع وليس هناك شىء أغرى لنار المفاسد وأزكى لضرامها من داهية خبيث يعرف كيف يضرب على وتر حساس فى نفس من يريد اتلافه وقد فاز هذا الصديق السوء فى التسلط على حسن فاسقطه الى

القرار وأرجع عهد تهتكه الماضى .

كل ذلك كان يحدث وصاحبتنا هند لاتهتم لانقطاع زوجها عنها واغفاله النظر فى شأن بيته لانها كانت يائسة لاترجو له صلاحاً ابداً . وقد جرّبت ولما ظنت أنها نجحت اذا بها لاتقبض الاعلى هواء ينساب من بين أصابعها ولما فتحت قبضتها وبسطت راحتها فاذا هى فارغة لا شىء فيها ! . .

وقد حاولت أن تكون عوناً لهذا الرجل المسكين لتنقذه من شقائه وبلائه وحسبت أنها استطاعت اتيان هذه المعجزة وهللت حبوراً وفرحاً فاذا بها ترى هذا الزوج يقف على رأس الهوة ولمسة واحدة تردية فيها . ! فعادت مكسورة الفؤاد ملتاعة غير أنها عرفت كيف تقول تلك ارادة الله وقضاؤه نافذ لاشك . . .

وأخذت تتفرغ مذ ذلك اليوم — الذى يئست فيه — لمهمتها الاخرى وهى التى ألقاها والدها على عاتقها قبل وفاته . . .

(مؤاساة الفقراء والمعجزة والسير فى طريق البريخطى واسمة)

لعلها تجد فى هذا العمل الصالح بلسما لجرح فؤادها وعزتها

ففى اليوم الذى نحن بصدده إذ كان زوجها عاكفاً على موبقاته وملاذه مع زمرة ابليس كانت هى فى غرفتها مع خالها الحاج مصطفى تسأله قائلة :

لم أتمكن من مقابلتك أمس ليلا يا أبتاه لانى كنت تعبة فرقدت والآن اخبرنى عما فعلت أمس

أجاب : لقد ذهبت من هنا تواً الى مأوى العجوز التى تعولها حديثاً وأعطيت تعليماتى لمن تلاحظها وكان الوقت قد أزف وليس لدى متسع منه ففضلت زيارة (زكى) ذلك الولد اليتيم فى معهده لان أمس كان الجمعة كما تعلمين فرأيته ينمو نمواً عجيباً وقد مدح لى الناظر فيه كثيراً وبشرنى بمستقبل حسن لذلك الولد المسكين

قالت : انى لارجو له الفلاح الدائم من صميم قلبى وبودى أن يشب ولدى رضوان ليكون له رفيقاً وصديقاً

قال : وهو يهديك أزكى سلامه ويقبل راحتيك

قالت : والهف قلبى على ذلك الغلام المسكين . . كم

أتمنى أن أراه رجلا قادراً على كسب قوته

قال : آه يا بنيه كم يتمر غرس الاحسان فى قلوب التعساء فان ذلك الولد اليتيم رغم صغر سنه يبارك ليل نهار ويتمنى ان يسفك دمه فى سبيلك . فقد كان يقول لى كل مرة أراه فيها « أتدرى ياعم الحاج مصطفى ما أتمنى على الله.. انى أتمنى ان يزيد فى عمرى أكثر مما أنا عشر سنين فاضع نفسى وعقلى ومواهبى تحت أقدام سيدتى هند هانم لانى أخشى ألا يطيل الله فى أجلى فأموت فى غير سبيلها !

قالت : وا رحمتاه له ما أدق شعوره وأرق قلبه

قال : وليس هو الذي يقول ذلك فقط بل كل أولئك التعساء الذين يتمتعون بحريتك وكرمك .

قالت : وما فعلت بخصوص عائلة الساعاتى التى أخبرنا عنها بيومى أفندى؟

أجاب : لقد ذهبت الى هناك بعد تركي مدرسة زكي فيالله لو كنت تعلمين فى أى حال من الفقر المدقع وجدت تلك العائلة .. انى لم أكن أتصور قط ان الشقاء يبلغ هذا الحد !

قالت : لقد صدق اذاً بيومى افندى ؟

قال : بلى . ان مجرد النظر الى مأوى تلك العائلة ومظاهر الفاقة الشديدة التى تنم عنها وجوههم يدعو الى ذوبان حبات القلوب رحمة واشفاقاً . وذلك ما حصل لى أمس تماماً . ان عينى لم تر أحق من تلك العائلة فيما نأتيه من الاحسان يا ابنتى ويجب أن نخصها باكبر التفات لانها أولى وأحق . . رجل فرد انهكه التعب والجوع وهو لا يكاد يحصل على ما يقوم بأود امرأة ضعيفة وصبية هزال . . ليت شعرى ألم يشعر بفاقة هؤلاء أحد غيرنا : . اننا لو لم ندرك هؤلاء التعساء فى الوقت المناسب لما يعلم غير الله ما سيحل بهم . . فيجب علينا ألا نبطئ فى تقديم المساعدة الكاملة لنتقدم انقاذاً تاماً

قالت : وما يمنعك من ذلك يا أبى . انى أوافق على ما تريد عمله بشأن تلك العائلة عن طيب خاطر . وقد أضيحت لا يشغلنى الآن عن اتيان البر شاغل . ولا يجدر بى أن أعيش هنا رافهة وادعه بينما أيدى القدر ترشق

بالاشجان قوماً تعساء يأنون من غصة الهم وحرقة الجوع

قال : واهاً لهذه النزعات الجليلة وهذا الوجدان الحي ! لشد ما يحزنني أن أرى هذا الشعور الصادق والقلب الرحيم الشفوق مع ماهو محاط به من الهموم والاحزان يبكي لمصيبة الغير ويغبط نفسه على ما هو فيه من رفاهية وهناء كأنه أصبح حقاً مطلق العقال لا يجد الهم اليه سبيلا

قالت : وهل تظن ان نفسي لم تصبح طليقة حقاً من عقال الهم . إني أريد أن أنعم بالحاضر وأعد الماضي نسياً منسياً وأشعر ان عملي الصالح فيه دواء القلب وشفاء النفس .

قال : والذي يجعلني أهتم أكثر بتلك العائلة انني علمت بأنها كانت على خير حال فأصيب ربها في ثروته وأصبح على الحضيض وله الآن أكثر من ثلاث سنين وهو يقارع الخطوب ويكافح النوائب ببأس شديد . وقد ساعده على كسب قوته انه كان مغرماً في أيام عزه بتصليح الساعات فاتخذ هذا الغرام مهنة يتعيش منها في أيام محنته . غير ان ذلك الجسم الغض مالبث أن ناء تحت حمله الثقيل حتى كاد

أن يبلى وأوشك عثار جده أن يمتد الى قوة صبره فيأتى عليها لولا شجاعة فى النفس وأمل فى رحمة الله

قالت : وكم عدد أولاد هذا البائس ؟

قال : فتاة دون سن البلوغ وولد صغير يبلغ السابعة مصاب بفقر الدم وطفلة صغيرة تبلغ العامين .. أما زوجته فامرأة صالحة لم تشأ أن تتركه فى أيام محنته . وهى منقطعة ليس لها حى من ذوي قرباها تزوجها فى أيام شبابه زواج غرام . وهى تعبده عبادة لأنه أنقذها من براثن الفقر . غير ان الدهر لم يغفل عنهما فأعادها الى هوة فقرها القديم وقد أخذت رفيق حياتها معها

قالت : وكم كسب هذا الرجل فى يومه ؟

أجاب : لا أكثر من عشرة قروش وربما بات أياماً بلا عمل لأن مهنته كاسدة ومن يشتغلون بها كثيرون !

قالت : ولمَ لا يدع ابنته الكبرى تشتغل لتساعده على النفقة ؟

قال : انه فعل . فأدخلها منزل رجل من الموسرين

عرفه فى أيام عزه ولم يجد فى نفسه من الجرأة ما يجعله يطلب أجراً لها وقال « حسبى أن يطعمها ويكسيها »

قالت : وماسنه ؟

أجاب : لا يتجاوز الاربعين حولا . وهو صحيح الجسم قوىه وذلك ما ساعده على تحمل متاعب الحياة بجأش رابط مستقبلا محن الدهر بصدر واسع وصبر جميل . وظهر لى من محادثتى القصيرة معه انه لم يهمل تلقى العلم فى صغره فهو فصيح القول عذب يلفظ ما يقول بنغمة محزنة تنفذ الى سويداء قلب محدثه عند ما يذكر ما لاقاه من صنوف الشقاء بعد زوال نعمته

ويحزنه جد الحزن انه لم يلاق أدنى مساعدة ممن كان يحسبهم أصدقاء وقت أن كان فى ربيع العمر مشروح الصدر مفتوح القلب لمسرات الحياة وملذات العيش . . فعلينا يا ابنتى أن نمد يدنا الى هذا الصدر المتلئ هموماً ونبذل غاية جهدنا لجلاء كرب نفس هذا الشهم البائس . وكأنى به يتمثل بقول الشاعر :

ولقد رأيت من الصحاب أحبة

معها صفوا فى الود كالرقطاء

يعطون من طرف اللسان حلاوة

بل يقرنون النصح بالاغراء

ولكم سعوا بينى وبين أولى النهى

لأظل منفرداً وهم نصحائى

فاستنفدوا ما كنت أملك ثم ولو

ا معرضين وكلهم أعدائى

قالت : اذاً يجب أن نشمله حالا بجودنا ومبرتنا

قال : أحسنت يا بنيه وإنى لفخور بأن أكون لك الخال الحنون الشفيق وها أنا الان أتركك على أمل أن أبلغك ماتم فى هذه المأمورية باكراً

قالت : ألا تأتى الليلة مبكراً ؟

قال : طبعاً غير انى لا أريد اقلاق راحتك ليلا

قالت : بل بالعكس انى أتلهف على معرفة أحوال هذه العائلة البائسة فعدنى انك تلاقينى الليلة يا أبى

قال : لك ذلك يا بنيه

قالت : ألا تتغذى معى اليوم ؟

قال : آسف لعدم امكاني ذلك لاني سأقابل اليوم صديقاً لي من الاسكندرية لم أقابله منذ عامين وربما دعوته للغذاء معى هنا بعد باكر

قالت : كما تريد . أستودعك الله

*
* *

لم تكد هند تصل الى غرفتها وخالها يخرج من باب الحديقة حتى دخل حسن يتمايل تيهاً وسط أصدقائه (الطيبين) وما كادوا يستقرون فى أمكنتهم حتى دخل بهجت وكان قد تخلف عنهم وهو مكمد الوجه مكفهر وجلس بعد أن حياهم . وكان رضا ينظر اليه مبتسما وهو يرمقه بنظرة صاعقة تدل على ان هذا الملعون قد أتى عملا هو سبب كدر بهجت حتى لم ير خليل بداً من سؤال بهجت عن سبب كدره .

فقال : لا شيء . ليس هناك ما يهم

قال خليل : لا . لا بد أن يكون هناك سر فى الامر .. فما حدث . قل .

قال : حدث ان هذا السكير (وأشار على رضا) لا ينتهى من أموره الصبيانية

قال لطفى : وكيف ذلك ؟

قال : إنى قاطعت بائع التبغ الذي كنت أعامله لأمر ما . وقد عرف سبب رضا ذلك . فهل من الادب واللياقة أن يذهب اليه اليوم صباحاً ويأخذ منه ألف سيجارة بدعوى أنى كافته بذلك . ويخبره بأنى أصلحت خطأى وسأعود الى معاملته ؟ .

قال خليل : أصحيح ذلك يا رضا ؟ .

قال : نعم . ولكن هناك شيئاً لم تعرفوه . لقد خرجت اليوم من منزلى بعد سهرة أمس المشئومة وجيبى أفرغ من كيس الموظف آخر الشهر ولا سجاير معى . فررت بدكان هذا البائع ولما كنت أعرف ان بهجت عميله أخذت منه سجاير . والحق انى لم أتذكر وقتها ان بهجت قاطعه

قال بهجت : ما هذه المماحكات الفارغة . . و لعلك ان حيلتك تنطلى علىّ . فلنفرض انك لا تعرف انى فاطمته فما الذى منعك من العودة الى منزلك واحضار نقود وهو لا يبعد عن بائع التبغ أكثر من عشرين خطوة .. وأيضاً لمَ لم تأخذ حاجتك الوقتية من السجاير بل أخذت ألفاً .

قال : ألم أقل انى (داكاك خالص) يا أخى الاخوان لبعضها

قال : الاخوان لبعضها ! . تصرف أموالك جزافاً ولا رادع لك من ضميرك ثم تأتى اليوم تغتصب مالى وتقول الاخوان لبعضها ! . إنى أضن بالقرش أنفقه فى سبيل متعتك مثلك وكان يجب أن تفكر فى غدك ويدك تلقى بالذهب يميناً وشمالا فوق الموائد الخضراء وتقذف بالنضار واللجين الى اسبيرو وياني لا لشئ سوى أن تسمعه يقول لك (مرسيه يا بيه) ! .

قال : الله . الله . . أتنوى أن تقلب الموضوع (بغم) حيلك يا سى بهجت الحكاية بسيطة

قال : انها ليست (بسيطة) كما تقول . أقول لك الحق

أن نفسى ملّت وفت فى عضدى . لانى حاولت فى كثير من المواقف أن أدلى اليكم بنصحى ولا من سميع . وكلما عزمت على فراقكم فراقاً لا لقاء بعده لان مشربى أصبح لا يوافق حالتكم أراجع نفسي قائلا (انهم اخوان الطفولة والدراسة وعزيز علىّ فراقهم) ولكن تأكد أنه يحزننى جد الحزن أنكم تخبطون جميعاً خبط العشواء غير مفكرين فى العواقب وقوة ارادتى الضعيفة مهما بلغت من الشدة لا تقوى على مصادمة ارادتكم . وحسبى أن أكون فى وسطكم فقط دون أن تقوى أيديكم على زجى فى بحركم المتلاطم بالامواج . ولعلى أستطيع أن أنفعكم عند الشدة

قال حسن : شكراً يا بهجت . انما تأكد أن لا خوف علينا جميعاً . وان كان هناك خوف فعلىّ فقط وانا عارف لنهايتى . ولكن ما علينا (سيبك) : ..

قال رضا : لنرجع لمسألة سجايرك ياسى بهجت ولنترك هذه الافكار السوداء (ولنارب اسمه الكريم) لقد أخذت

هذه السجاير على حسابك لسبب أبينه فى كلمتين

قال بهجت : وما هو يا حضرة ؟

قال : أتذكر مساء أول أمس . ألم يكن حسن (مواعدنى) على المقابلة فى (اسبلنديدبار) وعلمت بعد ذلك أنه أخلف الوعد لانك منعته عن الوفاء به

قال : لا . انى لم أمنعه . انما قابلته عفواً فى ميدان الاوبرا وقد تذكرت أنه يجب أن يذهب معى لمقابلة حفنى بك لمسألة هامة فاختلف ميعاده معك

قال : أنك لا تعلم كم خسرت فى اخلاف هذا الوعد بل بالاصح أننى لو كنت أعلم أن حسناً لا يأتى لعرفت كيف أنفق وقتى بفائدة

قال ضاحكا : وكيف ذلك ياسيدنا المحترم ؟

قال : لقد دعانى فى ذلك المساء صديق لى لاحضر الاحتفال بقران أخى . ولايخفى ما كنت أحصل عليه من هذه الحفلة الفاخرة : إذ كنت أخرج مملوء المعدة بفاخر الاطعمة والمشروب منتفخ الجيوب من أكياس الحلوى (والملبس)

فانتقاماً منك لهذا السبب قد أخذت السجاير . ولا أظنك تحسب أن ألف سجارة كثيرة كترضية لى (ياخى سيبك بقى واحمد ربنا)

فاخذ الجميع يصفقون طرباً وملأ صوت ضحكهم أنحاء البيت واضطر بهجت أن يجاريهم وأفرج عنه فما كان من رضا إلا ان أخذ يقفز حوله فرحاً ممازحاً حتى أسكته صوت حسن قائلا :

دعونى أتحفكم بخبر بديع أرجو أن يبدى كل منكم رأيه بخصوصه

قال رضا : خيراً ان شاء الله

قال : وصلنى خطاب أمس هذا هو فاسمعوا

سيدى المحترم

تتشرف الجمعية الخيرية الاسلامية بارسالها طى هذا تذكرة بنوار عن الرواية التى ستمثل فى حفلتها المقبلة بمسرح الاوپرا ولها وطيد الامل أن تقبل وترجو التكرم بابعاث الثمن مع الشكر

فصاح رضا : بنوار ! عال . أدخنا خمسة

قال لطفى : أيوافق حسن بك على ذلك ؟

قال : كلا فان هذه الجمعية هى التى يقوم الجدال بينى وبين زوجتى بشأنها

قال :لماذ ياصديقى ! .

أجاب : لانى مامن مرة فتحت درج زوجتى الخاص إلاوعثرت على خطاب شكر او ايصالات تبرع مرسلة اليها من هذه الجمعية ومن جمعية أخرى فى الاسكندرية تسمى المؤاساة قال بهجت:لو كان لى زوجة كزوجتك لافتخرت بعملها هذا فهي تعرف الطريق الموصلة الى ربها

قال لطفى :ولكن لاحظ يابهجت انها تعمل ذلك رغم إرادة بعلها

قال : وما يضيره من ذلك ما دامت لاتسأله شيئاً وهى تفعل ما يوحيه اليها ضميرها النقى وقلبها الحنون . هذا مع العلم بانها تنفّذ وصية والدها أيضاً

قال حسن : وهل يرضيك أن تصرف هذه الاموال جزافاً بينما لاأجد ماأصرفه إلا ما يتصدق علىّ به ذلك المرابى

الملعون بارباح فاحشة .. أن ذلك لا يطاق والاولى بى أما أن أكون رب بيتى بمعنى الكلمة وإلا فيجب أن أفترق عن هذه الزوجة التى تقف في سبيل غرضى

قال : حتى هذه اللحظة لا أجدك محقاً فى هذا القول من المخجل أن يتحدث الرجل الشهم عن مال زوجته ويظهر طمعه فيه .. وانى معجب بموقف هذه الزوجة الصالحة التي قويت على كبح جماحك

قال غاضباً : أنك خرجت عن حدودك معى بابهجت ومن الآن لايجب ان تتداخل فى شؤونى الخاصة

قال : اذاً اعلم أن هذا يجب أن يكون آخر العهد بيننا ولتعلم بانك على ضلال وسيأتى يوم تندم فيه أشد الندم

قال لطفى : الاجل سبب تافه كهذا تتخاصمان ؟

قال : ليس بتافه كما تظن فالمرء الذى لايجد من ضميره رادع ولا من نفسه ما يحببه إلى الاحسان وهو فى نعمة سابغة . ولا فى فؤاده عاطفة شفقة يجب ان يعتبر كانه وحش أو رجل بلا ضمير ...

صاح حسن : ماذا تقول ؟ حذار يابهجت

قال : انى لا أخشاك . فسلام على صداقتنا القديمة . انك لن ترانى بعد الان لأنى ذو قلب فلا أصادق من لا قلب له

يخرج بهجت هكذا منفعلا وباقى الاصدقاء سكوت كأن على رؤوسهم الطير وحسن يعض على نواجذه قهراً وكان يمكن أن يطول سكوتهم لولا أن قال لطفى :

لقد أخطأ فى استعمال هذه اللهجة

قال حسن منفعلا : سأريه : سأريه . . ولكن فى داهية بناقص كلب وأنا حسن برده !

قال لطفى : ربما عاد مستغفراً عما فعل لانه عصبى المزاج . فلم يجب حسن وظلوا هكذا سكوتا بعد ذلك حتى أصبح من المستحيل جلب السرور إلى أفئدتهم فاستأذنوا من حسن وانصرفوا وظل هو منفرداً غائصاً فى لجة من الافكار ومكث أكثر من نصف ساعة على هذه الحالة وأخيراً قام إلى الحديقة علّه يجد فيها ما يخفف عنه غمه الذي أحدثته كلمات بهجت الجارحة . .

الفصل التاسع

دخل الحديقة كاسف البال يجول برأسه ألف فكر ويتصور موقفه اليوم وشدة وقع هذه الكلمات القاسية على فؤاده وما لبث أن قال لنفسه :

« وهل قال غير الحق ؟ . ان بهجب لصديق صادق اعرف انه يكن لى من العواطف الشريفة ما شاهدت فى كثير من المواقف . وأنا أعرف فيه دقة شعوره ورقة قلبه . . وأعرف قوة اخلاصه وشدة حبه . . وهو أعلم الناس بى . يستطيع بقوة ذكائه أن يصور خطرات نفسى ونزعات وجدانى . . وليس من العدل أن أغضبه فهو أخي وصديق طفولتى . . من لى به الآن أجثو على ركبتىّ امامه معتذراً معجباً بهذا النبع الذى يجيش بالوجدان الحي والشعور الصادق . . »

وبقى هكذا متأسفاً على ما حدث متمنياً أن يصالح صديقه الصادق وبينما هو كذلك قدم اليه الخادم وأخبره

ان أحد (الخواجات) يريد مقابلته : فتردد أولا غير انه سار مسرعاً نحو سلالملك البيت كأنه قطع العزم على شيء

كان هذا القادم كهل وخط الشيب شعره . ولحيته صغيرة ظهرت بوادر المشيب خلال شعرها . أصفر الوجه يضع منظاراً فوق عينين صغيرتين ينبعث منهما بريق الخبث والدهاء . طويل القامة نحيفها . أصابع يديه طويلة طولا غير عادى كأنها المقارع يرتدى سترة طويلة (ردنجوت) فوق سروال رمادى اللون تتدلى فوق أول بطنه سلسلة من بلاتين الغليظ كأنها مقود الحمار وبها قطعة من المرجان على شكل قرن الثور . له أذنان كبيرتان وأنف طويل دقيق غزير شعر الخيشوم وبالجملة فكان منظره مما لا يروق فى العين ..

وكان جالساً وقت دخول حسن وبين ركبتيه محفظة من الجلد الاصفر أبلاها القدم حتى تغير لونها من الاصفر إلى البنى الغامق !

وما ان وقع نظره على حسن داخلا حتى قام منتصباً

ثم ترك منفل محفظته المنتفخة وقوس قامته مسلماً :

فقال حسن : بنچور مسيو مناحم . تفضل اجلس .

قال : بنچور حسن بك . لا تؤاخذني أنا حضرت اليوم مضطراً اذ أصبحت في هذه الايام (معذور خالص)

قال : أهل تطلب اليوم شيئاً ؟

قال : أمرك يا بيه . .

قال : اني لست على استعداد للدفع اليوم . بل بالعكس كنت عازماً على مقابلتك الليلة لاخذ دفعة أخرى .

قال : اني (خدامك) دائماً مر أصدع بأمرك !

قال : أهل تقبل أن تقرضني ألف جنيه أيضاً ليعاد ثلاثة شهور ؟

قال : بالطبع يا بيه لكن . . .

قال : ماذا ؟

قال : انت تعرف الازمة الآن فأود أن يكون لي ربح بسيط جزاء تلبيتي طلبك سريعاً

قال : وهل في ذلك شك . . كم تطلب ربحاً يا مسيو مناحم ؟

قال : شيئا بسيطا جداً . . انك مدين لى بمبلغ الف وستمائة جنيه بموجب إيصال تحت يدى و . . .

قال مقاطعاً ماذا قلت :

قال : الف وستمائة جنيه

قال : لا أتذكر انى أعطيت إيصالا بكل هذا المبلغ أرنى إياه . . ألم آخذ فقط تسعمائة جنيه دفعة ثم مائتين دفعة أخرى ؟

قال : هو كذلك . وهل لا تحسب حساباً للارباح ؟

قال : ارباح ! أتقول أرباحاً ! مبلغ الف ومائة جنيه تأخذ عنه ربحاً خمسمائة ! هذه سرقة يا مسيو مناحم

قال : لم تقل كذلك وقت ان أخذت النقود لتدفع دين القمار . . ومع ذلك فقد أعطيت إيصالا يا بيه . .

قال : كفى . كفى لا أريد أن أقترض منك أبداً ما دام الربح فاحشاً جداً وامهلنى شهراً أدفع لك ما تطلب منى

قال : (على كيفك) انما كم تدفع ربحاً للشهر ؟

قال : كم تريد ؟

قال : مائة جنيه (بس) ! .

قال : هذا نصب واحتيال

قال : انك مخير فان لم تقبل لا بأس ادفع وخذ إيصالك أو (اعمل الاصول)

قال مغضباً : لا بأس أيها الكلب اكتب إيصالا بمائة جنيه أوقعه لك ولا تريني وجهك قبل شهر

قال : مرسيه ! . .

وأخذ يكتب الايصال بهدو وثبات كأن حسنا لم يدعوه كلباً ! . وفى دقيقة كان الايصال ضمن أوراقه موقعاً عليه ! . وأخذ قبعته منصرفاً وعند ما وصل آخر الغرفة ناداه حسن قائلا : قف يا خواجه

فعاد على عقبيه قائلا : فيه خدمة ! . .

قال : اعطنى الايصال ثانياً

قال : ولماذا ؟

قال : لأنى سأدفع لك المبلغ باكر مساء ولا أود ان تسرقنى هكذا

قال : يسرنى انك تقدر على الدفع باكر اننا ثق انى لا أصبر أكثر من أربعة وعشرين ساعة من الآن وهذا (اكراماً لخاطرك) لانك أحسن عميل لدىّ !

وأخرج الايصال الجديد من بين أوراقه وأعطاه لحسن فمزقه هذا وصاح بمناحم بصوت خشن مبحوح قائلا : أخرج . . باكر الساعة الثامنة يكون المبلغ لديك ولا ضرورة لحضورك إلى هنا . افهمت . . .

قال : سمعاً وطاعة (وخرج)

أما حسن فتهالك فوق مقعد وهو يعصر جبينه بكلتى يديه قائلا . ما العمل . . ما العمل . .

وأخيراً برقت أسرته ولمع فى عينيه شهاب غريب وصاح قائلا لنفسه . نعم هكذا يجب وإلا . . .

ولم يتمم باقى قوله واندفع الى قاعة المائدة يطلب الغذاء متأخراً ! . .

*
* *

دخل القاعة ليأكل فلم يستطع وبقى ينظر الى الطعام

امامه وهو مشتت الفكر يحمل ثقلا من الهموم وغالب هذا الكدر فلم يقو على تقويض صرحه فقام عن الطعام دون ان يذوقه والخادم ينظر اليه مبهوتاً . .

وقاد نفسه الى غرفته مثقل الخطوات مترنحاً وصادف في طريقه الخادم تلاعب ولده رضوان الصغير فمر دون أن ينظر اليهما . أو لانه لم يرهما . فتعلق الصغير بساقه وشعر به فدفعه عنه بعنف وهو لا يعي ولا يشعر بقسوة دفعته فصاح الصغير متألماً وقال :

أنت ردىء يا أبي وأنا لا أحبك ! . .

فانثنى اليه وقد صدمت هذه الجملة صماخ أذنه وأثرت فيه تأثيراً كافياً وقبض عليه وحمله حتى حاذى فمه الصغير شفتيه وقبله قبلة حارة قائلا :

اتحبني الآن يا رضوان ؟ . .

قال الطفل : نعم يا أبي أحبك . . انما لا تدفعني مرة ثانية

قال . ومن تحب أيضاً ؟

قال . أحب أمى كثيراً . أكثر منك. وعمى رضوان أكثر منكما

قال : ولماذا يا عزيزى ؟

اجاب : لانها تعطيني كثيراً من الحلوى والشكولاته أما أنت فلا تعطينى شيئاً . وعمى أشترى لى هذا الحصان الجميل

فقال ضاحكا : ومن يشترى لك كل تلك الاشياء الأخري ؟ . ألا تعلم انى أنا الذى أشتريها لك يا عبيط

قال : لا أعلم غير ان أمى هى التى تعطيني كل ذلك . وكثيراً ما كنت أنتظرك لتأتى وتعطينى شيئاً مما أحضرت فلا تأتى وأنام

قال : ان أشغالى كثيرة ولذلك أحضر متأخراً

قال : ألا قل لى يا أبى . أتسدنى أن تحضر مبكراً قبل رقاردى حتى أقبلك .. قل أتفعل ؟

قال : أتريد ذلك ؟

أجاب : نعم فانا أحب أن أقبلك كل ليلة قبل أن أنام ! كما يفعل صبحى مع أبيه

قال : ومن قال لك ذلك؟

قال : هو . . قال لى أنه يقبل أباه دفعتين وكل دفعة يعطيه أبوه (حاجه حلوه)

قال مبتسما: سأرى . والآن قبلنى فى فمى

قال : لا . . عدنى أولا أنك تحضر الليلة مبكراً

قال: أعدك

فسمع لصوت القبلة رنة عميقة اهتزت لها أوتار فؤاد حسن وضم طفله الى صدره بقوة ثم تركه للخادم وسار فى طريقه الى غرفته

*
* *

وكان قد سرى عنه وزال ما به . غير أنه مالبث ان احتوته الغرفة حتى عاد الى التفكير العميق ويده تعبث بشعره مرتبكا . ثم قام الى درج مكتبه ففتحه وأخرج صندوقاً صغيراً أفرغ ما به من نقود فاذا هى لا تتجاوز الاربعين جنيهاً فوضعها فى جيبه قائلا :

انها تكفى وربما ساعدنى الحظ الليلة ! . .

واغلق الدرج بعد أن وضع الصندوق كما كان وقرع الجرس لخادم ليحضر له ملابس المساء

كانت الساعة الخامسة لما ترك المنزل فسار سيراً حثيثاً في طريقه الى محطة الترام وبينما هو ينثر خطاه مسرعاً إذ سمع صوتاً يناديه : حسن بك . حسن بك

فالتفت بحركة واحدة فرأى صديقه رضا يركض نحوه وهو يلهث تعباً فوقف ينتظره وهو منزعجاً وقال :

من أي جحيم قذف بك . . لقد أرعبتني !

قال : انى مقذوف من الفردوس لا الجحيم . . وقد كنت بمنزلك الآن فقيل لى لم يكد يصل أول الشارع فجريت حتى (أحصلك) وها أنا بين يديك أتحفك بخبر سار

قال حسن : وما هذا الخبر السار ؟

قال : أنك مدعو معي بالزيتون ..

قال . عند رمزى بك ؟ . لا أود أن أكون هناك

قال : رمزى مين يا عم دى دعوه على كيفك جداً

قال : أين إذاً . قل يا رضا انا عندى شغل

قال هامساً : لقد أتت . . . وهى تدعوك الليلة ! . .

صاح: أتقول حقاً؟

قال : وهل تظن المزاح فى كل الاوقات.أنها حضرت اليوم وأرسلت فى طلبى وقد رجتنى أن أدعوك اليها و (أصالحك عليها ! . .)

قال : لا يسعنى ان أكون قاسياً وكفى أننى هجرتها هذه المدة . . واظن أنها تلقت درساً شديداً فلا تعود (تلعب بديلها) مرة ثانية

قال :أنها درة يتيمة يجب أن تحتفظ بها ياحسن بك . . (وبينى وبينك) ألم يعتورك الاسف والندم على فراقها كل هذه المدة لسبب تافه؟ .

قال: صدقت. ولعلى أجد سلوى بعودتى إلى معاشرتها تخفف عنى بعض الضيق الذى أنا فيه

قال . إذن هيا بنا

ونادى حوذياً كان ماراً واستقلا عربته وصاح رضا

قائلا : الزيتون يا (أوسطى)

وفي العربة أخذ حسن يخبر رضا بما تم بينه وبين المرابي مناحم وكيف اصبح لا يملك نقوداً تحت يده سوى مبلغ الاربعين جنيهاً وشكا له تعنت زوجته وعدم قبولها اعطائه نقوداً ..

وتذكر أثناء قوله كيف كان الموقف بينه وبينها شديداً وكيف كانت قوة ارادتها متجلية في كل حركة من حركاتها وان السد أصبح منيعاً بينه وبينها أو بالاصح بين يده ونقودها فكيف العمل إذاً ومن أين يحصل على ما دامت دجاجته التي كانت تبيض له الاصفر الوهاج قد فرغ بيضها . . .

وثروته الخاصة ؟ لقد أتت يده المسرفة على معظمها وريع الوقف لا يكاد يكفي مصروف أسبوع بين اخوانه ويمامته التي صالحته !

فكيف يرضيها ويرضي اطماعها .. وكيف يظهر بمظهره العظيم وسط اخوانه ومعارفه . . اللهم إن كانت هذه الحال ستتغير والنقود تشح في كفه فهو يفضل أن يقبر في رمسه

قبل أن يصل الى هذه الدرجة ! ..

كل هذه الافكار كان يقرأها في سره كانها مكتوبة فوق لوح فضي يلمع في ظهر حوذي المركبة ! وكان رضا ناظراً اليه مزهولا مبهوتاً لا يجسر على تكدير صمته والحوذي يستحث جواديه حتى أتى منعطف طريق فكاد أن يصطدم بمركبة أخرى لولا ان وقف بعنف في ناحية من الطريق فنبهت هذه الحركة حسناً فانتفض كانه مس بطارية بها تيار كهربائي وقال لرضا معتذراً

عفواً يا رضا فقد (سرحت)!

قال : لا بأس غير أنك أقلقت بالي فما الخبر ؟

قال : لا شيء . انما صدري ضيق بلا سبب

قال: أتحتاج لنقود؟

فتردد قليلا ثم قال : كلا . . لقد طلبت من اخي رضوان واظنه يبعث لي باكراً أو بعده

قال : والليلة . . أتظن أربعين جنيهاً تكفي ؟ .

قال كانه يحدث نفسه : نعم والليله . . فما العمل يا رضا

قال : أنسيت مناحم . . .

قال : لا أريد أن أعامله بعد الآن

قال : غير كثير . . وسلامون مامو

قال : من هذا انى لا أعرفه

فاحاب : هو رجل طيب جداً . يرضى بالربح القليل

قال : وكم يأخذ على المائة؟

أجاب : يأخذ شيئاً بسيطاً لا يذكر : نصف قرش عن الجنيه

فى اليوم الواحد !

صاح : أهذا شيء بسيط . . أنه خراب . خمسة عشر قرشاً عن الجنيه فى الشهر فيكون الربح عن مائة قرش سنوياً هو مائة وثمانون قرشاً : . لله درك يا رضا . أتحسب هذه السرقة (شيئاً بسيطاً لا يذكر) ! . .

قال : هذا اذا تأخر الدفع كثيراً

قال : وهل تظن أن من يقترض نقوداً اليوم يدفعها غداً : أظن أن صاحبنا مناحم أقل طمعاً من صاحبك

قال : اذاً هينا بنا اليه (يا أوسطي دور على مصر)

فصدع الحوذي بالامر وبعد نصف ساعة كانا بين يدى عمنا مناحم في منزله (بالعباسية) !.

ولم يكد يراهما حتى أخذ يرحب بهما بخبث وقال :

لى الشرف بان أراك مشرفاً منزلى يا حسن بك بعد ان كنت أظن أنك (زعلان) منى ! أي طلب تريد؟

قال : بردون يا مسيو مناحم. لقد كدرتك اليوم. ولكن عذراً فقد كنت (مش مبسوط)

قال : لا لا تهتم . . (وهل أنته حد يزعل منك) . .

قال : شكراً لك . أريد مبلغاً حالا والدفع بعد شهر

قال : كم تطلب ؟

أجاب : خمسمائة جنيهاً (بزيادة) ! . .

فقام الى خزينة يعلوها الصدأ وأخرج رزمة من الاوراق عدها وأخذ قلماً أعطاه لحسن قائلا :

من فضلك أكتب هنا . . « وصلنى مبلغ ستمائة جنيه »

فقال حسن مقاطعاً : لا . بس خمسمائة

قال : أعرف ذلك . . والارباح أنسيتها ؟

قال : تريد مائة جنيها ربحا لخمسمائه فى شهر فتكون المائة ربحها ٢٤٠ ٪ فى عام أنكم لصوص ولا شك وخرج من المنزل هائما على وجهه ورضا بركض وراه . . .

الفصل العاشر

أرجو من القارىء الكريم أن ينتقل معي بفكره على جناح الخيال الى منزل الساعاتي الذي ذكره الحاج مصطفى في محادثته مع هند بل قل ذلك الوكر الذي تغلق ابوابه على شقاء مقيم وبؤس ليس وراءه بؤس

نعم لندخل هذا البيت الحقير الذي تحتوي جدرانه على التعاسة مجسمة والفقر المدقع . والجوع الكافر يصول فيه ويجول غير راحم أفئدة تئن من ألم النوائب . ومهج صغيرة لاطفال ضعاف لا يقوون على مصادمة الشقاء والصبر على المخمصة . كان الساعاتي درويش يجلس الى خوانه في غرفة ليس فيها من الاثاث الا القليل البالي . يفضي منها إلى مخدع له نافذتان صغيرتان تشرفان على درب ضيق قذر . وكانت زوجته تجلس تحت قدميه فوق قطعة من الحصير البالي وبجوارها طفلان نائمان وامامه على الخوان قطع من ساعات مفككة . وكان وقتئذ لا يشتغل انما معتمداً رأسه بيده

خافضاً بصرة مسترسلا الى التفكير والتأمل . وقد ظل على ذلك أكثر من نصف ساعة لا صوت فى الغرفة . والسكون شامل مروع

وقد كانت زوجته طول هذا الوقت تنظر اليه صامتة وما لبثت أن رأت دموعه تجرى فوق خده فارتاعت وصاحت :

رباه أراك تبكى ؟ .

فانتفض كأنه افاق من ثبات وقال بصوت هادىء :

كلا ياعائشة أن بعينى رمداً اسال دمعها ..

قالت : وددت أن أصدقك .

قال : هى الحقيقة فاطمئنى . . .

وانصرف الى تفقد قطع الساعات التى امامه وحاول أن يشتغل ليلهيه العمل عن الافكار السوداء المحيطة به غير أنه ما لبث ان رأى يده تتباطأ فى التحرك ورأسه يترنح للامام كمن يغالب النوم . فصاحت به زوجته قائلة :

أرى الاوفق يا زوجى العزيز ان تستريح قليلا وكفى اجهاداً لجسمك

قال : استريح : اتقولين ذلك ياعائشة . . ومابعد الراحة الا يكون بعدها الجوع والألم ، آه ثم آه انها تقول قم لتستريح فهل تجد الراحة سبيلا الى جسمي . . كلا فيجب ان اشتغل حتى أسقط تحت وطأة العمل

قالت : أنك لم تنم حتى الآن وقد كنت طول الليل ساهراً

قال : صدقت ولكن ما العمل وان هاتين الساعاتين يجب أن اسلمها : باكراً وأنت تعلمين باننا صرفنا آخر مليم من أجريتها اليوم الماضي . فهل تظنين أن أصلان يكلفني بتصليح شيء فيما بعد لو تأخرت عن تسليمها في الميعاد ؟. أنه يمتنع عن تكليفي بأي عمل ولست ادري اية مصيبة تنتظرنا لو قفل هذا الباب أيضا . . أنسيت اننا تبنا ليلتنا الفائتة ونحن بعض الوسائد من ألم الجوع وها نحن اليوم كدنا نطوي على الجوع لولا ما اقترضت من بيومي افندي . . فوالهف قلبي على نعمة مضت فقضت علينا ! .

قالت : كفى يا درويش فانك تذكرني بما يهيج أشجاني ويقطع حشاشة قلبي تقطيعاً

قال : أنت التى الجأتنى لفتح هذا الباب . فدعينى ددعينى بالله . دعينى أنفث نفثات قلبى لانى أشعر بنار تتأجج فى صدرى وهى آكلة تشوى فؤادى . . انى لاأنسى نعم لاأنسى ماحييت يوم ان خرجت لاشتغل ووعدتك باحضار العشاء معي . غيرانى عدت وا أسفاه خالى الجيب واليدين مكسور الخاطر نادى العينين . . وحالما فتحت باب غرفتنا ماذا رأيت ؟ رأيتك واضعة القدر على النار لتوهمي الاطفال بانك تسوى طعاماً وما كنت تفعلين !.. وفوق نخذك ابنتنا الصغرى نائمة وقد أجهدها البكاء والولد يحوم حولك فلما بصر بى أسرع الىّ ركضاً وساقاه لا تقويان على حمله من شدة الهزال وهو يصيح (بابا . بابا أنا جوعان) فانهمل الدمع من عينىّ كالمطر وانطرحت بجوارك منهوك القوى وقد عقد لسانى وانعقد الزبد فوق شفتىّ

صاحت : كفى بالله . . رحماك يا درويش . .

قال : هكذا جرى فدعينى أتلو هذه الصحيفة المرة . . ولما زالت تلك النوبة أبصرت به وقد وقف مذعوراً خلف

الباب فاردت النهوض لأنزع حبة قلبي من صدري وأعطيها له يسد بها جوعه ما دام الحصول على كسرة الخبز متعسر علىّ فاذا به يصيح والهاً مرتعداً ظناً منه انني سأضربه قائلا والعبرات تخنق صوته (عفوك يا أبى ولا يكدرك عملى فانا جوعان جوعان) فاتقدت عيناى ببارق يأس شديد هائل واعترانى زهول أفقدنى رشدى فلم أعد أعرف ما تم بعد ذلك ...

وكانت زوجته التعيسة تغالب عواطفها ودموعها تهطل كوابل المطر وهى لا تستطيع اخراج كلمة من فمها المشنج وقد زادت بها اللوعة وأصبحت فى حالة من هياج العواطف شديدة جداً وأخيراً استطاعت أن تمد يدها إلى حلقومها كأنها تخرج منه الكلمات اخراجاً وقالت بصوت مبحوح خافت :

رحماك كفى .. كفى بالله

قال : اصمتى .. اصمتى أيتها الزوجة التعيسة ودعينى أتلو صحيفة شقائى .. وبعد افاقتى وجدتك راكعة بجوارى

ودمع الحنو يهطل من عينيك المقرحتين وقد رسم الدمع خطوطاً على خديك . . خطوطاً من شجن زادت منظرك تعاسة وشقاء . . فآه ثم آه وماذا أقول بعد ذلك . . ولكن صبراً صبراً طالما يشجعني الأمل

رب قسمتها حظوظاً علينا فهناء لذا وتعس لذاك
لا لفضل ولا لنقص ولكن لك سر يحير الادراك

قالت : اما كفى يا صديقي ما نحن فيه من تعاسة وشقاء حتى تثير همومي بتذكيرك إياي بما مضى . . اسمع بالله عليك يا زوجي المحبوب . لمَ لم تفعل ما أخبرك به جارنا من زمن وتقصد تلك الجمعية التي تؤاسي الفقراء وتقيم عثرة الكرام ممن جار الدهر عليهم ؟

قال : اسمعي يا عائشة . انى لا أزال ذلك الرجل الانوف الذي لم يقف موقف السائل . فانا بحمد الله فى قوة وصحة رغم فاقتنا واحتياجنا لتغذية أجسامنا . فكيف وبأى وجه أطلب المساعدة من جمعية خيرية كهذه . انها لا تبخل علىَّ بشئ وأنا على يقين لانها كثيراً ما ساعدت التعساء

أمثالي . ولكني في الوقت الذي أكون فيه عازما على طرق بابها بعد أن تهيئني الحيل أعود على عقبي مذعوراً وأنا أقول في نفسي : أف لي أنا القوي القادر على الاشتغال كيف أمد يدي لأخذ صدقة ربما كان هناك من هو أحق بها مني ... وكم من مرة غالبت نفسي وقصدت بابها غير اني أعود ادراجي من حيث أتيت

قالت : ولكن فاتك ياصديقي انك تطلب الصدقة باسم أولادك الصغار فهل تدعهم يموتون جوعاً وفي يدك وسيلة كهذه

قال : الصغار ؟ . أولادي الصغار ! .. نعم لقد تذكرت لا يجب أن يموتوا . . بل أنا الذي يموت . ولكن ويلاه ألا يعقب موتي موتهم وأنا الكفيل بهم .. كلا فيجب أن أعيش إذاً . . نعم يجب أن أعيش وان أبذل في هذا السبيل آخر منزع من قوس تحملي وآخر قطرة من دمي فداءً لفلذات كبدي . . أواه لقد لقيت من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يتحمله بشر ومع ذلك فيجب أن أكافح

حتى الرمق الاخير لعل أستطيع أن أبقى فى يدى ذلك الخيط الرفيع من الأمل

قالت : كفى الآن يا درويش ولا تندفع فى تيار هذا الحزن العميق ولعل الايام تدور دورتها ويعود الينا الهناء كما كان

قال وهو يبتسم ابتسامة مرة : هناء !. انك تتحدثين عن الهناء ما أصفى سريرتك وأرق عواطفك أيتها العزيزة الشقية ! . . انى أفهم الحقيقة الهائلة التي وصلنا اليها فلا رجاء ولا أمل إلا بالصبر والثبات . وتحقيق ذلك الأمل بطىء جداً يطول انتظاره . . ومع ذلك فكلنا نؤمل . . نؤمل . . فاصبرى حتى يتحقق ذلك الأمل

قالت : لا تكفر يا درويش فاننا نؤمل فى رحمة الله

قال : أستغفر الله ربى مما تقولين . . أأنا اكفر ؟ . إن أنا إلا بائس شقى يئن من ألم النوائب

قالت : أتسمح لى بكلمة ؟ .

قال : نعم فاذكرى ما تريدين

قالت : ما دار بينك وبين ذلك السيد الذي زارنا أمس مع جارنا يومى افندى .

قال : لا شيء وانما اتى زائراً معه . ولقد فهمت من كلامه انه يهتم بأمرى ويريد لنا الخير وقال بانه سيزورنى اليوم . وقد استدرجنى فى الحديث حتى عرف قصتى . وقد ظهر عليه التأثير الشديد عند ما عرف كم لاقيت فى سبيل العيش ...

وهنا طرق الباب فلبث برهة لا يتحرك ثم طلب الى زوجته ان تدخل القاعة الأخرى وتقدم هو نحو الباب ففتحه بيد مرتجفة فاذا بصاحب البيت الذى يسكنه واقفاً امام الباب وهو مسمراً بخده الكالح المنتفش الشعر والقسوة التى لا حد لها تتمثل فى كل عضو من أعضاء وجهه فقال الساعاتى بصوت خافت . تفضل ياعم هاشم . تفضل

قال غضوباً : وما تريد منى . وكيف جاز لك أن تلح فى طلبى وأنا كثير العمل ليس لى من الوقت ما أضيعه معك بلا جدوى

قال : لقد رجوت ولذلك أن يطلب اليك مقابلتي فعفوا عفواً يا سيدي لأني كنت عازماً على طرق منزلكم بنفسي ولكني خشيت أن تردني خائباً

قال : وماذا تريد ؟ قل وأوجز

قال : أرجو يا سيدي ان تمهلني قليلا . فان يدي لا تملك من أجرة هذا المنزل درهماً واحداً

صاح : ماذا تقول ؟ . ألا تدفع هذا الشهر أيضاً ! . لقد زدت عن الحد فكم من مرة سمعت شكواك فاشفقت عليك وكانت النتيجة ان صرت مديناً لي بمبلغ كبير أظنني لا أحصل عليه إلا يوم القيامة . فلا امهال الآن مطلقاً

قال : عهدي بك ياسيدي نصيراً للضعفاء فاشفق علينا

قال : وما بعد الشفقة . انني لو عاملت جميع السكان معاملتك لما أصبحت سوى صعلوك لا أمتلك قوت يومي فهل ليس لي عائلة مثلك وأحتاج لنفقة أكثر منك أضعافاً؟

قال : صدقت انما أرجو منك امهالا

قال : وما تريد ان أفعل لك . ان ذلك فوق طاقتي !

قال : خذ علىّ إيصالا يا سيدى بما لك عندى وأنا أدفع لك عند انفراج هذه الأزمة

فصاح ضاحكا : إيصال ! . أأخذ عليك إيصالا ! . حقاً لأنت نبيه واقتراحك من ألطف ما اقترح . . . وأى ضمانة تقدمها على قولك هذا أيها الهمام ؟

أجاب : شرفى

قال : شرفك ! . انه يقول شرفه ! . فما أسخف عقول هؤلاء الناس . وأى شرف تعنى ؟ . وما ينفعنى شرفك وأنت أفلس من عقل الجاهل . انى أريد نقوداً . أريد نقوداً ولا يهمنى ان كنت عريقاً فى الشرف أم لا

قال : لاحول ولاقوة إلا بالله . لقد أسمعتنى ياسيدى من قوارص القول ما كنت أفضل أن أصاب بالصمم على أن أسمعه . ولكن يجب أن أتحمل كل هذه الاهانة

قال : وهل تظننى أهينك بمطالبتى إياك بحقى ؟

قال : كلا ياسيدى ماظننت ذلك . ولكنك لاتثق بى

وتستعمل لهجة شديدة فى مخاطبتي . وأنا مجبور أن أتحملها منك لانك أنت الاقوى

قال . سواء ظننت أو لم تظن فانا أطلب نقودى ولا يهمنى غير ذلك والسلام

قال . إذاً لم يبق إلا أن تطردنى من هذا البيت طرداً يا سيدى والله حسبى أنا وأطفالى الصغار فهو ملجأ البائسين التعساء

قال : لا يهمنى . وكفى ما فعلت لاجلك من زمن

قال : ألا تأخذك رأفة بنا وشفقة !. اتق الله ياسيدى فى أسرة فقيرة معدمة تهلك جوعاً رويداً رويداً . ودعها آمنة فى وكرها الحقير حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ..

أتضن علينا بهذا الركن الصغير من بيتك ! رحمة ياسيدى واشفق على أب بائس يطالب اليك بلسان أطفاله وزوجته أن تدعه آمناً فى مكانه وهو يفعل المستحيل حتى يوفيك حقك

أجل ياسيدى دعنى . . دعنى وانا اقسم لك بشرفى . .

لا لا فانت لا تحسب حساباً لهذا الشرف ! أقسم لك بحياة أولادى ولكن لافهم فى نظرك كلاب جربة يجب أن تلقى فى الطريق !

اذاً أقسم لك بمن جعلك أقوى منى ساعداً وأشد حولا بانى أقوم بوفاء دينك ..

قال هازئاً : حديث خرافه . فاستعد انى مبارحة بيتى

قال : أصممت على ذلك ياسيدى

أجاب بلى فلم يبق عندى صبر ولا جلد . .

قال : فلتكن مشيئة الله . . ولتسقط عليك اللعنة أيها الوحش لانك لا تشفق ولا ترحم

صاح : حذار أيها الصعلوك الشحاذ . .

فارتفعت يده فى الهواء وكاد يهوى بضربة ساحقة على رأس هذا الشيخ الفظ غليظ الكبد ولولا أنه تراجع الى الوراء وهو ينبش شعره بخشونة قائلا

ويلى ماذا كنت عازماً عليه ! . رباه هبنى من لدنك رشداً . أن هذا الوحش الفاقد الشعور والضمير لا يزال

واقفاً امامى بعد ان سحق قلبي وكبريائى . . أنه لا يزال واقفاً امامى وغير حاسب لبطشى حساباً ! اغرب عنى أيها الشيخ الظالم فان النظر الى وجهك الكالح الشنيع يجعل دمائى تغلى فى عروقى . . وطريق الجريمة قريب جداً عند ثورة الغضب . . إذهب فان يدى بيضاء نقية فلا تكن سبباً لتلويثها اخرج أيها الرجل لانى أكاد أفقد شجاعتى وايمانى ولتكن ملعوناً الى الابد . . .

قال : اتهددنى . . لقد احسنت اذاً صنعاً لانى كنت أعرف فيك هذه الصفات الدنيئة . فتذكر ماذكرت لك وبارح منزلى فى أقرب وقت

قال : نعم سأبارحه والله نصيرى ومعينى وما أحسبه يتخلى عن البؤساء أمثالى . . .

فسمع عند تلفظه بهذا القول صوت قائل يقول :

كلا فهو لا يتخلى عن القوم الصالحين . .

فاحدثت هذه الجملة رجفة فى الاثنين وما هى الا لحظة حتى دخل القاعة شيخ جليل يعرفه القارىء وهو صاحبنا

الحاج مصطفى خال هند فنظر اليه درويش مبهوتاً مزهولا قائلا

سيدي الحاج مصطفى ! أأرسلك الله لتكون شاهداً عدلا على ظلم بنى الانسان ولتري المروءة والشفقة وقد انتزعت من أفئدة من كان على شاكلة هذا الرجل ؟

قال : صبراً يا أخي فقد وصلتك رحمة الله قبل فوات الاوان

قال : ماذا تقول ياسيدى ! أهل حقاً لم يتخل الله عنى؟

قال : كلا ياصديقى فقد ابتلاك الله والآن يحسن لك الجزاء

صاح : آه يا سيدى انك تبث فى فؤادى روح الامل

قال : ماذا فعلت أيها الشيخ الهرم بهذا الرجل المنكود الحظ

صاح مغضباً : وما شأنك أنت ؟

قال : شأنى كثير كما سترى .. انى سأجعل حداً لسوء معاملتك وظلمك وتعسفك .. أنك على حافة قبرك أيها الشيخ فهلا عملت لآخرتك ؟

قال : كفى يا رجل واخرج من منزلى مع من تكتنفه بحمايتك أو فادفع ما هو مدين لى به

قال : أهذا كل ما تريد . . الا لعنة الله على قوم قست قلوبهم وتحجرت ضمائرهم فهم لا يشعرون . . كم مقدار الدين أيها الرجل ؟

أجاب : ثلاثمائة وعشرين قرشاً !

قال : اهذا فقط ! .

واخرج نقوداً من جيبه يعدها ثم يناولها الشيخ هاشم قائلا : خذ دينك

فأخذ يقلب النقود بيد مرتعشة شأن البخلاء ولما تأكد من أنها صحيحة غير زائفة ولا تنقص درهما . افرج عن ابتسامة صفراء ولمعت عيناه ببارق غريب وصاح قائلا

بارك الله فيك ! . وأنت يا ولدى يا درويش لا يكدرك ما صدر منى فانا معذور ! . ومن الآن البيت بيتك فابق فيه كما تشاء ! . السلام عليكم ! .

فرد عليه السلام بتكلف وقال الحاج مصطفى :

ألا تبًا له من بخيل . . أنظر كيف انقلب من حال الى حال بمجرد أن لامست النقود كفه. ولكن (ماعلينا)

قال درويش . باى لسان أشكرك يا منقذى

قال . لا شكر على الواجب . واسمع ما أريد أن أقول لك

قال : انى طوع أمرك يا سيدى

قال : أتذكر زيارتى لك أمس مع صديق بيومى افندى ؟

قال : كيف لا سيدى وقد ارتسمت صورتك على صحيفة فؤادى من أول نظرة. وضميرى يحدثنى بانى سألاقى الخير على يديك

قال . هو كما تقول . وأنا الآن هنا لاعرض عليك أمرًا

قال : تكلم يا سيدى تكلم

قال : لى ابنة غنية تريد أن تستثمر أموالها بطرق مختلفة وقد رأت أن تستخدمك في عمل لها ولك أرباح على ذلك

صاح متعجبًا : أنا ! تستخدمنى أنا! . أننى رجل أصبحت ضعيف الارادة لما نالنى فى مكافحة الزمن. ان حياتى قد ثارت

عليها زوبعة هائلة فاودت بكل شجاعتها وصبرها فهل تظن أنني أصلح لعمل بعد ذلك :

قال : أنك قوى البنية صبور ولا يبعد عليك أن تسترد شجاعتك سريعاً وأنا أمد يدى اليك لانتشلك من يأسك وشقائك فهل تريد أن تصافح تلك اليد ؟

صاح : واهاً لك ياسيدى إنى أقبل تلك اليد قبلة تحوى مالدى من اخلاص وشكر للجميل فقل ياسيدى ما تريد أن تحدثنى به . . وعسى الله أن يجعلنى قادراً على أجابة طلبك .

قال : أن مهنتك الآن هى تصليح الساعات فالعمل الذى يجب أن تديره هو . . .

فصاح مقاطعاً : لقد فهمت . إنك تريد أن أشتغل بهذه المهنة . . ليكن ذلك فقد صرت أحسن هذه الصنعة كأنى كنت اتعاطاها من نشأتى . . نعم لقد أتقنتها لان الشقاء علمني كيف أجيد عملى لاكسب قوتى . . .

قال : إذاً فعملك هو أن تدير محلا يتاجر فى الساعات

ويكون لك ربح من ذلك خلاف مرتبك الشهرى

قال : صبراً ياقلبي فقد أفعمك السرور وأخشى عليك..

ليكن ماتريد ياسيدى

قال: إذاً إليك المال فدبر الامر بمعرفتك

فنظر الى الذهب يتوهج فى كيس النقود امامه فترنح وصاح مبهوتاً مذهولا

أكل هذا المال ! . انى أخشى أن يقتلنى الفرح . . رباه هذا كثير . . كثير

قال الحاج مصطفى : والآن لى رجاء بسيط أرجو أن يجاب

قال: تكلم يا سيدى فانا اليد تحركها كيف شئت

قال : لقد طلبت الىّ ابنتى أن أطلب منك ترك الاهتمام بابنتك الكبرى اليها هى . لانها تحب أن تجعلها أنيسة لها ورفيقة . . فهل تمانع ؟ .

أجاب: انى وجميع أفراد عائلتى فى خدمة السيدة . وهل أستطيع أن أوفى دينها الادبى ؛ اليست هى التى أنقذتنا

جميع الدماء التي تجري في عروقنا هي ملك حلال طاهر فلتأخذها
يا سيدي ولتنفث من فمها الحنون نفثات الطهر والصلاح
الى فؤاد تلك الابنة الطاهرة فهي المثال الصالح ونعم القدوة

قال : إذاً استودعك الله وأرجو أن تخبرني بما يتم

قال : في حفظ الله يا سيدي أثابك الله على عملك المبرور
وقدرني على دفع ثمن هذا الجميل الذي لا يقوّم بمال ...

الفصل الحادى عشر

تركنا صاحبنا حسن يركض هائماً كمن مسته جنه ورضنا يهرول خلفه فلم يستطع لحاقاً به وأخيراً تركه وشأنه وهو يعجب مما حصل . أما حسن فظل يركض والناس تنظر اليه فى الطرق مبهوتة وكاد أن يصطدم مرة أو مرتين ولم يعد اليه شعوره تماماً إلا فى آخر ميدان بوابه الحديد فاسرع الى مقعد رخامى فى الحديقة جلس فوقه منهوك القوى وهو ينظر الى السماء مهدداً لاعناً كمن فقد ايمانه وشجاعته

وبعد ان استراح قليلا قام يترنح فى سيره واستقل عربة أوصلته الى منزله وكان الوقت بعد العشاء فدخل غرفته وأخذ يمشى فيها طولاً وعرضاً وهو ملتاع الفؤاد حزين النفس للدرجة القصوى يحدث نفسه مشترك الخاطر . ولما نال منه التعب انطرح على فراشه دون أن ينضو ثوبه عنه والخادم يلاحظ كل ذلك خارج الغرفة دون أن يستطيع

تمرضاً له غير انه أسرع الى سيدته هند وأخبرها بما حدث فاضطربت وما لبثت ان رأت نفسها تسير نحو حجرة بعلها !

ولما احتوتها جدرانها وجدته مستلقياً فوق فراشه وهو ينظر الى سقف القاعة ذاهلا مستغرقاً كمن يستجمع كل حوادث أيامه وهو متغير الوجه أجهمه فشعرت بجزع شديد ضاق عنه صدرها فتنهدت . وكأنه شعر بحركتها أو سمع تنهداتها فقام عن فراشه مذعوراً ورآها فقال

أنت هنا ؟

قالت بلى أتيت

ولم تزد كلمة على قولها وظل هو الآخر صامتاً صمتاً مروعاً أكثر من اللازم ثم قال

انك أضعتنى !

قالت متعجبة : أنا ! . أنا أضعتك . وكيف ؟

قال : اننى فى ضيق مالى وقد أهملت طلبي

قالت : أهذا ما تريد أن تتحدث عنه . لقد أعطيت جوابى وإنى لا أتحول عنه

قال: أهذا قولك الأخير ؟

قالت : نعم ولا يسعنى إلا الامتناع عن مساعدتك على ضياعك وإتلافك

قال : انى أريد أن أسدد ديناً عدم القيام بوفائه مضيع لشرفى . وأظن ذلك لا يرضيك

قالت : لقد سمعت كثيراً من هذه الاقوال . وأقول لك صراحة انها لم تعد تؤثر فى نفسي وذلك زمان مضى وانقضى . ومع ذلك فكم دينك ؟

أجاب : لا يقل عن ألفى جنيه !

قالت : فى استطاعتك أن تقوم بدفعه دون الالتجاء الىّ إذ هذا مبلغ زهيد إزاء ما يخصك من ريع الوقف

قال : لقد أضعت ذلك الريع مقدماً !

قالت: ولمن أنت مدين ؟

أجاب : لرجل مرابى يدعى مناحم

قالت : أين يقطن ؟

أجاب : بالعباسية . لماذا تسألين ؟

قالت: سأرسل خالي اليه بالمبلغ وتأكد ان هذا آخر ما أعطيته لك

قال: لا أريد أن يتداخل خالك في شؤوننا الخاصة وأود أن أسلم الرجل المبلغ بنفسي

قالت: أرأيت انك تكذب!

صاح: حذار يا هند

قالت: مم أحذر. انى على يقين من ان هذا الدين لا وجود له إلا في مخيلتك وقد جسست نبضك وعرفت ذلك. وتأكد أن يدك لا تقبض على مليم واحد من نقودي إلا لسبب صالح. وكان الاولى بك أن تقول انك تريد هذا المبلغ للصرف على اخوان ملاذك ولاستئناف لعبك فوق مائدتك الخضراء. ولكن تأكد ان هذا الحلم لن يتحقق فقد أصبحت أرى بعينين مفتوحتين وارادتي ثابتة لا تتزعزع

قال: ليكن ذلك... سأرى. ولا أظنك إلا نادمة على هذا العناد قريباً. ويخرج.

فرفعت هند عينيها نحو السماء وتنهدت قائلة

اللهم لطفك بنا . اللهم أسألك العزم والثبات امام هذا الروح الضائع

وقرعت جرساً صغيراً بجوارها أتت على صوته خادمتها الخصوصية فأمرتها باخبار خالها الحاج مصطفى بانها ترغب في مقابلته الآن في غرفتها قبل أن يرقد

***

لبى الحاج مصطفى طلبها وزارها في غرفتها فألفاها متغيرة الوجه كئيبة فسألها عما بها فحدثته خبرها مع زوجها وهو يتململ من شدة الكدر دون أن ينطق بكلمة واحدة أثناء سردها حديثها ولما سألته في النهاية أهل تعيب تصرفي معه يا أبي ؟

صاح غضوباً كأنه بركان انفجر بغتة : أعيب تصرفك ! اعيب تصرفك ! من ذا الذي يفعل هذا الهراء . أنك قادرة حكيمة يا بنية وأنا افتخر بك . ويجب ان تكون الزوجة مثلك امام عتو زوج طالح فاسد وضميري مستريح جداً من هذه الناحية ... من ناحيتك

قالت : اذاً لندعه يركض فى طريقه الوعر حتى يجده مسدوداً أو يسقط فى منتصفه منهوك القوى

قال نعم: وستكون النتيجة هكذا

قال : أهل انتهيت من مسألة الساعاتى اليوم يا أبى ؟

قال : بلى يابنية وقد تم الأمر وفق ما أردت . وابنته الكبرى ستكون عندك بعد يومين على الا كثر

قالت : وهل عنده القوة الكافية للقيام بعمله الجديد؟

قال : انه رجل ذكي كفء ولى فيه ثقة كبيرة . لقد درست أخلاقه بمجرد محادثتى إياه محادثة قصيرة

قالت : أحسنت يا أبى . وأرى الآن أن تقوم الى فراشك لانك تعبت اليوم كثيراً

قال : صدقت والشيخوخة لها حدود. استودعك الله

*
* *

تركنا حسن يخرج مغضباً بعد ان فقد كل أمل فى الاستيلاء على مبلغ من زوجته وكان مبلغ الاربعين جنيهاً لا يزال بجيبه لم يمسه فظن انه ربما ساعده الحظ الليلة

وأصاب شيئاً من المكسب ففرج على أول نادى من نوادى القمار المعروفة لديه فدخل دون تردد والفى القوم تموج بهم قاعات هذه البؤرة الفاسدة كأنها الجحيم وهم قوم المجرمين يصلون نارها فوقف امام أول مائدة صادفته وظل ينظر الى اللاعبين منهم بشغف شأن من تمكنت منه العادة فلا يستطيع عنها حولا

وكان حسن معروفاً فى هذا النادى من قليل من زائريه فلم يفطن اليه أحد فى مبدأ الأمر غير انه سمع أحدهم يقول (بنسوار حسن بك) فكانت هذه الجملة سبباً لاستلفات نظر كثيرين اليه . وسرعان ما انفرج العقد وزحزحت المقاعد ليجدوا له مقعداً بينهم لانه (زبون دافى) ! . فجلس طبعاً وقلبه يدق شديداً حاسباً فى سره ان معه أربعين جنيهاً فقط وهى لا تكفى وسط هذا المحيط المائج بالذهب الوهاج وقطع العظم الحمراء والبيضاء والاوراق الخضراء والحمراء والبنفسجية الغامقة من فئة المائة والخمسين والعشرة . لعب

أول دور فربح عشرين جنيهاً وظل يربح أكثر من نصف ساعة حتى جمع ما أمامه فكان ربحه ثمانمائة وعشرون جنيهاً فافتر ثغره واهتز طرباً لانه لم يوفق فى يوم من أيامه لربح كهذا وصمم فى نفسه على الاكتفاء . وكأن أحد غرمائه فطن الى ذلك فاراد أن يستفزه ليبقيه امامه فصاح متهكما

ان صاحبكم حسن بك يخشي على عقله من الاختلاط لانه لم ير ورقاً من فئة مائة جنيها قبل الآن . ولذا فهو عازم على فراقنا سريعا ليختلي مع أوراقه شأن (المحدثين البخلاء) !

فارتعد حسن لهذه اللهجة الجارحة وكاد أن يبطش بمن تلفظ بهذا القول لولا أن ملك عنان نفسه وكظم غيظه فتبسم مرغماً وقال :

انى معك يا صاحبي حتى الصباح . وأظنك حالماً إذ توهمت انى قائم ومفارق طلعتك الغراء !

ولو أردت كان اللعب بيننا فقط حتى أناقشك الحساب على هذه اللهجة الوقحة...

فصاح الآخر : لك ذلك فدونك اللعب

وما هي إلا بضع جولات في هذا المضمار المشؤوم حتى فقد حسن ما معه من نقود حتى الاربعين جنيهاً وشعر خصمه أن جيبه أصبح فارغاً فطلب اليه أن يلعب معه بالدين!

هكذا تم وما هو إلا قليل زمن حتى قام حسن عن المائدة مثقل الرأس مترنح الخطوات مديناً لخصمه باربعمائة جنيه . . دين شرف ! دين قمار ! يجب تسديده بعد يوم كامل ! . . فمن أين يأتي بالمال وقد نفذ معينه ويد زوجته لا تمتد اليه بقرش صغير ! .

كان الوقت بعد نصف الليل لما ترك هذا النادي المشؤوم ولم يكن معه حتى أجرة عربة توصله الى منزله فسار على قدميه ! . سار يخطو بقلب مملوء هموماً وضمير هائج وخطى ثقيلة كأنه أصبح هرماً يحمل من سني عمره حلقات عديدة !

*
* *

وصل منزله والساعة في صالة البيت تدق الثانية بعد نصف الليل ودخل غرفته دون أن يشعر به أحد . . .

دخل غرفته وهو مكمود الفؤاد حزين النفس فتهالك

فوق مقعد طويل ورمى بطربوشه فوق فراشه وفك ربطة رقبته دون ان ينضو بقية ملابسه وظل يقيس مساحة السقف بعينيه .. ولو رآه راء فى هذه اللحظة لما عرف فى هذا الوجه المغيم ذلك الوجه النضر المبتسم وكأنه لم يعد ذلك الرجل الفرح الذى كان يسبح فى فيض من الهناء ونعيم الحياة .. وكأن قلبه قد مات وغاض نبعه الفياض بالمسرة والبهجة .. نعم لم يبق من هذا الشاب الفرح غير رجل أنهكه السهر حول الموائد الخضراء .. رجل مقامر مات ضميره ومات وجدانه وأصبح ينوء بما يحمل من هموم وكرب ! .. ذلك ما صيره اليه اليسر تلك الآفة الجهنمية ...

وإذ هو جالس نصف راقد والصمت مخيم عليه قال بصوت خافت ضعيف كأنه يناجى نفسه :

والدين ! كيف أدفعه ؟ ألا تعينى هند ؟ كلا أنها لا تثق بى ولا تصدقنى ..

وقوّم قامته منتصباً فى وسط الغرفة ونظر الى

جوانب القاعة نظرات نارية متغيرة وهو يعبث بشعره بسرعة وخشونة وأخيراً قال :

نعم هكذا يجب . والتبعة على من أضاعني من حيث أراد احيائي واصلاحي ! .

وخرج من غرفته محاذراً ! . . .

الفصل الثانى عشر

سافر رضوان إلى مصر ووصل ليلا إلى مقر أخيه فى تلك الليلة التى كان بها حسن مختليا فى غرفته بعد خسارته الكبيرة . وكان يظن ان أخاه منعكفا على ملاذه فى مواخير تهتكه ولا سبيل الى مقابلته قبل الصباح . ولم يشأ ان يوقظ ابنة خاله هند فدخل غرفته (التى كانت مخصصة له عند قدومه الى مصر دائما) وسأله الخادم هل يريد طعاما فاجابه بانه تعشى فى القطار وصرفه

وظل بعد خلع ملابسه هادئا مطرقا الى الارض يجول برأسه ألف فكر والسكون سائد لا يسمع فيه سوى صوت تنفسه وخفقان فؤاد الساعة المعلقة فوق رأسه وحركة صغيرة من الشارع البعيد والساعة حوالى العاشرة فتناول كتابا من فوق رف صغير وجلس يقرأ حتى لعب النوم بجفنيه فاطفأ النور وقام الى مضجعه وما لبث ان هجع . وقد شعر فى همود الليل وسكونه بحركة فى الغرفة المجاورة وهى من غرف

هند الخصوصية فاستيقظ ورأى الغرفة منارة بنور غير عادى ضئيل فحمله الفضول على الدنو من ثقب القفل لينظر فسمع قبل ان يرى صليل مفاتيح ! وما هى إلا لحظة حتى رأى ما كان يجرى فى الغرفة فكاد يخر صعقا وانبرى الى الخارج وهو يرتجف قهراً وفى برهة كان امام أخيه حسن وجها لوجه ! والخزينة مفتوحة ويده تعبث بما تحويه من نقود !

فنكص الاكبر (حسن) امام الاصغر مرعوبا خجلا .

فوقف رضوان امامه وقال كمن يتكلم من قبر :

أأنت يا حسن ! .. وما تعمل هنا ؟

قال : كما ترى

قال : لا أدرى شيئا أيها المنكود

قال : ألا ترى انى أسرق زوجتي

صاح : انت ياحسن انت !

قال : بلى . . واليد التى زجت بى فى مهاوى الهلاك واضاعتنى هى نفس اليد التى أتت على شرفى الآن . وقد كنت

أنتظر هذه النهاية بعد ما قاسرت واستدنت وانا عاجز عن سداد ديونى . . .

قال : ولذا مددت يدك إلى مال زوجتك ؟ .

أجاب : نعم

قال : ولماذا لم تطلب نقوداً منها بدلا من سرقتها ؟ .

قال : لقد فعلت كثيراً فى سبيلى ولم ترد لى طلبا . . أما الآن فى هذه الايام فقد تغير الحال وابت أن تعطينى قرشا لانها عرفت ما آلت اليه حالى و نصحتنى فلم اقبل نصحا !

قال : وارحمتاه لك أيها المنكود لقد منعتك من ارتكاب جريمة السرقة و تلويث شرفك

قال : وهل بقى شرفى دون تلويث ! انى تعيس شقى وانا أتمشى الى قبرى بقدم ثابتة لادفن مع عارى

وهنا سمع الاثنان صوتا فوجما وظل الصوت يتقدم حتى فتح باب الغرفة ودخلت هند ! . .

فكادت تصرخ رعبا مستنجدة لولا ان صاح بها رضوان بصوت مبحوح قائلا بربك لا تستغيثي . . .

قالت متعجبة : رضوان ! . حسن : . مامعنى ماأرى !.

فتقدم نحوها رضوان بعد ان نظر إلى أخيه نظرة مبهمة وقال : عفواً يا هند . . .

قالت: عفواً!

قال : نعم عفواً لأنى حاولت ان أسىء اليك . حاولت ان أمد يدى لنقودك فنعنى حسن من ارتكاب الجريمة !

صاحت : أنت تسرق . أنت :

قال : نعم

قالت : انى لا أصدق

ونظرت الى زوجها فالفته يكاد يصعق وهو يهتز كالقصبة الجوفاء فى مهب الريح مغمض العينين بوجه كالح متغير ! فذعرت وصارت تنقل نظرها بسرعة بين زوجها وأخيه وهي تكاد تجن من الارتياب

وأخيراً تهالكت فوق مقعد وهى تمثل منتهى اليأس فتقدم رضوان نحوها قائلا :

عفواً . عفواً . يا هند

صاحت : كلا لا أصدق . قل يا حسن كلة . أهل يهوى أخوك من سماء فضائله إلى هذا الدرك الاسفل . لماذا لا تتكلم ؟ قل بحق السماء لان هذا الارتياب شديد وهو يقتلني إذا لم تجب

فاجاب بصوت كأنه خارج من القبر : وا أسفاه عليك . ان رضوان . .

فصاح هذا مقاطعاً كأنه خشي إن يتكلم الصدق وقال : كفى ياحسن . انى لاأستحق رحمة على جرمى وأنا أودعكما وداعاً لا لقاء بعده

قالت : كلا لا تذهب الآن . أتقسم أنك قلت الحق ؟ فغالب نفسه لانه على وشك أن يقسم زوراً غير انه صاح بصوت ساكن ثابت قائلا : اقسم انى قلت الحق !

قالت : وهل أتيت لتسرق حقاً ؟

قال : أقسم بانى أتيت لهذا الغرض :

وفر هائماً على وجهه الى غرفته وهو يصيح الوداع يا أعز الناس عندى . أرجو أن يغفر الله لى بفضل دعائكما

فقفز حسن بحركة نحو الباب مادًّا ذراعيه وهو يهم باللحاق به غير انه سمع صرخة هند تدوى فى أذنه ورآها تسقط مغميًّا عليها فاسرع نحوها وهو كالمجنون الهائج وأخذها بين ذراعيه محاولا إفاقتها ونظر الى السماء نظرة صاعقة . نظرة تعيس ناء به الخطب . وبعد جهد استطاع ان يوقظها من غشيتها فقامت الى غرفتها وهى تتوكأ على ذراعه وتقول فى سرها

هناك شى كان يجرى لا أستطيع معرفته . انى ارتاب . أشك — فى صحة اعتراف رضوان . أسفى عليك ياأخى . وتسرد دمعها سجالا على الخدين

***

عاد حسن الى غرفته بعد ان اطمأن على زوجته وحمد الله ان البيت كان صامتًا وقت حدوث هذه المأساة الهائلة فلم يشعر أحد من الخدم بما كان يجرى ولا الحاج مصطفى وكأنه عزم على شىء فجلس يفكر طويلا ثم قام الى ثوبه فخلعه وجلس الى مكتبه وأخذ يكتب وهو هادئ ساكن والشمس تكاد تبرز قليلا فوق خط الافق واليك ما كتب

اخى رضوان الحبيب

أظنك ارتديت ملابسك بسرعة وخرجت من منزلى هائماً حتى لا تجعل لى سبيلا لمراجعتك وامساكك . وأظن هذا أفضل لى ولك. أكتب إليك كتابى هذا بعد تردد كثير إذ كنت عاقداً العزم على كتابته لهند . وآلهف قلبي عليها وعلى ولدى ! . تركتك تتهم نفسك وانا واجم ذاهل وقد أكبرت هذا العمل الجليل . وما أظنك تحسبنى أستطيع نكران هذه التضحية التى أتت من أعز الناس لدىّ . غير أنى بعد خروجك هائماً ومحاولتى اللحاق بك بقيت لواجب أكبر وهو اسعاف هند وقت أغمائها. لقد أغمى عليها يا أخى ولم تستطيع أن تتلقى تلك الصدمة القاسية . وما أظنها تنسى هذه الضربة بسرعة لقد قدت نفسى إلي غرفتى وما لبثت أن أحتوتني جدرانها حتى هاجمنى الانفعال وثارت خواطر نفس جثوت بحوار فراشى فاقد الرشد مسعور الفؤاد يمتلىء صدري بكرب لا يقدر وهمّ ينوء عن حمله شامخ الرواسى

ودام مكوثى على هذه الحال طويلا حتى شعرت بأن

فؤادى يصيح وأوصالى تتقطع . وماهى الا برهة حتى أنقذني من الجنون ماهطل من عينى من وابل الدموع فنفس عن صدرى المكروب

لقد قلت على ما أتذكر فى اجتماع لى باصحابى «ان قوة الارادة أصل الثبات وأنا أعترف أن الثبات يبعدنى بمراحل ويدى لا تقبض على ذرة منه . فدعنى أسير الى حتفى فانا ضحية . ضحية العادة والتقليد الاعمى وقد أماتت عاداتى .. عاداتى السيئة كل عاطفة شريفة فى نفس ـ إلا انفتى وشرفى طبعاً ـ وأخشى وأنا مفعم القلب وجلا ان تمتد يدى بسوء الى شرفى فتأتى عليه أيضاً . وهنا يكون موتى وتأتى نهايتى لا محالة . » وها قد صحت النبوءة يا رضوان : "

ويلى ألص أنا . أهل امتدت يدى لاختلاس مال زوجتى : . نعم هكذا حصل . ولكن اليد لم تختلس مالا بل ما هو أغلى قيمة وأثمن

أصبحت بلا شرف يا رضوان ويدى هى التى قضت على هذا الشرف : . أما أنت فجزاؤك عند الله

لقد اتهمت نفسك لتنقذني وما دريت ان نفسي أصبحت تعاف النظر الى ذلك الماضي المدنس . انك أردت أن ترد الي الحياة والشرف فلا الاخير بعائد ولا الأولى بذات قيمة عندي وقد قطعت عزيمتي على الموت :

نعم على الموت فهو الباب الوحيد الذي يجب علي ان اسلكه وما اسعدني بهذا العزم الراسخ كالجبل في صميم قلبي فلا عدول ولا تزعزع...

واطمئن قلبي على قبر ضيق عميق يضم رفاتي وتطوى فيه صحيفة حياتي : تلك الصحيفة السوداء التي لم أبصر بين سطورها المدنسة ما يدعو الى الفخار سوى العامين القصيرين في أول زواجي...

لقد عشت عامين نعم . ويجدر بي أن أقول عنهما بحق ان يدي التعسة لم تقبض على الهناء إلا فيهما وبهما . وتلك اليد أيضاً هي من هدمت هذا الصرح البديع بمعول النزق والطيش :

لو كان لي عقلي لعشت منعما لكن عقلي كان في اهوائي

فى ذمة الرحمن يا بنى أنت وأمك . لقد نقشت لكما فى صحيفة الوجود صورة مرعبة وقضيت على أثمن حلية يفتخر بها المرء وأكرم جوهرة وأغلاها . جوهرة الشرف الثمينة التى كانت تضىء ما بين جنبى رغم سيرى فى وادى الفجور بخطى واسمة دون روية ولا تبصر

فى ذمة الله يا بنى ما خلفت لك من اليتم . ولعلك تظل جاهلا كيف قضى أبوك

عزيز علىّ يا رضوان ان أراك والهاً علىّ حزيناً فان أخاك لا يستحق ان يبكى عليه . وانا أودعك وداعي الاخير غير ذاكر لك ما يجب ان يشب عليه ولدى لانه ولدك قبل ان يكون ابنى وأنت له نعم القدوة

أنا وحدى وسط الهموم والاحزان . استغفر الله . ان الغمّ مقيم لديكم وأنا على يقين . ودموعى . دموع التوبة والندامة . دموع الفراق الذى يجب ان يتم . أظنها لا تبلغ عشر معشار ما تجود به ما قيكم الآن شفقة علىّ وتحسراً على ما وصلت اليه . وأنا أطلب اليك بحق الاخوة ان تؤاسى

زوجتي وتسليها علّها تنسى هذه النكبة . . من المضحك أن أنبهك إلى ذلك كأنك في حاجة الى هذا الطلب وأنت من يسفك دمه في سبيل هند !

يؤلمني أن تكون هند في هذه اللحظة ظانة بك السوء ولكن قلبها الحنون وعظم ثقتها بك تجعل هذا الظن مستحيلا . ولم تسلم باتهامك نفسك الا لاتقانك تمثيل الدور دور التضحية النبيلة التي أتيتها . وكتابي هذا متى ظهر بعد موتي برهان قاطع على براءتك وشرف عملك

وداعا يا أخي وصديقي .. وداعا يا أكرم الناس عندي وابرّهم بي .. وثق ان روحي لا تنفك ترفرف على هنائك بعد موتي وبعد ان تتناسى سقوطي حتى نتلاقى في العالم الآخر

اني اشعر بصوت هند تتحرك في غرفتها وما اظنها الا قلقة ارقة ولا يبعد ان تأتي الى غرفتي لتستطلع حالي . صدق ظني وها هي آتية .. انها لا ترى مني غير جثة هامدة .. ويدي اليمنى الآن تكتب واليسرى تبحث في درج مكتبي عن

مسلسي .. لقد وجدته وهو محشو برهة واحدة كافية .. ان فوهته فوق جبيني واشعر ببرودة معدن النيكل ... استودعك الله سأطلق النار الآن وبذا تنتهي حياتي الشقية

اخوك حسن

خاتمة

دوى صوت الطلق شديداً حالما وطئت قدم هند عتبة غرفة حسن فهجمت نحوه بسرعة وهي والهة هائجة وأتت على صوت صراخها خدم المنزل وفي مقدمتهم خالها الحاج مصطفى عارى القدمين إذ كان يصلي في هذا الوقت فوجدوها مغمي عليها فوق بساط الغرفة وحسن مسجى فوق مكتبه والدم الاحمر القاني يسيل من ثقب أسود فوق حاجبه الايسر

وما هي إلا برهة حتى استفاقت هند وقامت تتهادى حتى أتت مكان زوجها فظلت برهة تنظر اليه جامدة ساكتة ثم هتفت صارخة وارتمت عليه توسعه ضما وتقبيلا حتى نال منها الجهد وهوت بجواره لا حراك بها . . . فلم تبق عين من العيون المحاطة بهما إلا أن بكت بكاء مراً وتهافتن الخادمات على ايقاظ سيدتهن والرجال على النظر فى شأن المنتحر وبعد قليل استفاقت هند وهي مضعضعة الحواس أما حسن فلا رجوع الى الحياة وقد قضى . . .

***

استدعى ضابط البوليس على الاثر وبعد المعاينة والاطلاع على جواب حسن المنشور الصحائف فوق مكتبه عمل المحضر اللازم وسلم الجواب الى الحاج مصطفى قائلا انه يحتوى على سر عائلى وليس هناك مانع من تركه له . وأبلغ رضوان الحادثة تلغرافياً عن يد قريب له بمحطة طنطا فقابله ونقل اليه خبر الفاجعة فعاد على عقبيه الى مصر وهو حزين واله

وفى اليوم نفسه تمت معدات التحنيط ونقلت الجثة

فى ثانى يوم بالسكة الحديدية الى شبين . وحملت على الاعناق الى مليج بمشهد كبير رهيب . وهناك فى تلك القرية وضع حسن فى مثواه الاخير وسط ذلك المحيط المائج بالخضرة والعطر الطبيعى العابق . . ذلك الذى لم يشأ فى حياته أن يخلد الى سكونه ولذة العيش بجواره بل فضل أن يطير بجناحين من ذهب يكتنفه جو ملوث مملوء بالمفاسد كانت نهاية التحليق فيه قصف هذا الغصن الرطب الغض . .

من ذا يرى هذه العبرة ولم تعظه . . ومن ذا يرى هذه النتيجة ولا يرعوى ! .

* * *

أما هند فقد انتقلت مع خالها وولدها الى المزرعة بجوار رضوان وظلت أياما كثيرة لا تفارقها ذكرى تلك الفاجعة غير انها بمرور الوقت استطاعت أن تسدل ستار النسيان على الماضي وعادت الى حالتها العادية وقد عملت كما أشار عليها به رضوان من أن تشترى عقاراً بالمبلغ الذى تركه لها المرحوم والدها توقف ريعه على تعليم بضع عشرات من

اليتامى بالمدارس وملؤاسناة اكثر من عشرين عائلة فقيرة شهريا وقد وهبت درويشا الساعاتى كل المبلغ الذى أعطى له على ان يسدده بالتدريج وقد صلح حال هذا الرجل الشجاع وعاش عيشة راضية

وبعد عام كامل عرض الحاج مصطفى على هند أن تتزوج رضوان فقبلت وصارت مع زوجها فى هناء وحبور بجوارهما عزيزهما الصغير التذكار الحي الذى تركه عزيزهما الراحل . . .